

العرب والحضارة الأوروبية

محمد مفيد الشوباشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

المكتبة الثقافية
٣١٧

العرب والحضارة الأوروبية

محمد مفيد الشوباشي



طبعة ثانية
١٩٧٥

تزاوج الثقافات

ما من نهضة حضارية ازدهرت فى أمة من الأمم خلال حقبة من الحقب الا وكان ازدهارها نتيجة لتزاوجها بثقافة حضارية خارجية وفدت عليها ... ويتوقف مبلغ ذلك الازدهار على وعى الأمة التى تلقت الحضارة الخارجية، وعلى أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، ومدى استعدادها لتلقى تلك الحضارة . ولا غرابة فى ذلك فان نهضة أى بلد لا تنشأ من العدم كما تنشأ المدن السحرية ، ولا تزدهر دون أن تتوفر لها أسباب العمران ، ولا تبلغ أوجها منعزلة عن غيرها من النهضات ، وانما تنمو متأثرة بها ، متفاعلة معها .. وليس التطور الحضارى العام الا ثمرة نشاط البشر المتبادل المتفاعل .

وقد يسأل سائل : كيف نشأت اذن أول حضارة فى التاريخ مادامت نشأة الحضارة لا تتيسر الا اذا تزاوجت بنهضة أخرى أجنبية عنها ؟ ...

لا محيص من أن تكون الاجابة عن هـــذا السؤال افتراضية ، لأن أحدا ممن عاشوا فيما قبل التاريخ لم ينبئنا بحقيقة ما حدث فى أغـــوار العصور المظلمة التى انبثقت البشرية خلالها . بيد أننا لن نشط وراء الخيال . وسيرى القارىء أن صدق اجابتنا يمكن ادراكه بالبداهة .

ان أول شعاع للوعي الانساني بزغ فى ذهن الانسان الهمجي ضئيلا ، وتطور بطيئا كتطور الانسان من المرحلة شبه الحيوانية الى المرحلة الانسانية . وكانت كل فكـرة يوحي بها الواقع الى ذلك البدائى تبدو فى ذهنه غير واضحة حتى يطبقها ، فاذا التطبيق يقومها ويزيدها وضوحا، واذا مبادلتها مع غيره يطورها ويجلوها ويمهد السبيل لتولد غيرها وتطورها...وما تعاونت عقول الأفراد الأول على تفهم الواقع ، وأدى تزاوج أفكارهـــا الى ازدياد الوعى البشرى الناشىء ، وتحسن الانتاج البدائى حتى أخذ ذلك الفكر النامى ينتقل بين الجماعات والقبائل المتكاثرة ، ويتزاوج بما يصادفه من فكر جديد ، ويتـــوالد ويكبر ويعمل على تحسين الانتاج المحلى أو المقتبس من الخارج .. واستمر هذا التطور التدريجى لفهم الجماعات البدائية وانتاجهـا حتى وصل الى مرحلة جديدة حاســـمة لدى أول أمـة تخطت العصر القبلى القديم الى العصر الزراعى ـ ومن ثم نشأت أول حضارة فى التاريخ .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن هذه الحضارة الأولى نشأت فى ربوع وادى النيل ، وأن فيضان هـــذا النهـر

العظيم كان أهم عامل فى سرعة ازدهارهـــــا ؛ ذلك أن المصريين القدامى لم يتجهوا بادىء الأمر الى دراســـــاتهم الفلكية والرياضية الا ليعرفوا موعد ذلك الفيضـــان على وجه الدقة ، فيعدوا الأرض للزراعـــة ، ويبذروا البذور فى الوقت المناسب . ثم انهم تعلموا مقاييس الأطوال من قياس مناسيب ارتفاعه ، وتعلموا الموازين والمكاييـــــل من محاولة تحديد كميات المحاصيل .. ونكتفى بما تقدم على اقتضابه حتى لا نبتعد عن موضوع هذا الكتاب .

وتتزاوج ثقافة بلد من البلاد بثقافة أجنبية عنها اما عن طريق الوفادة ، أو عن طريق الاجتلاب .

والوفادة تحدث بالغزو على الأغلب ، أو بالتجاور والتبادل التجارى ، أما الاجتلاب فيحدث عندما ينمو وعى أمة ما تهيأت لها ظروف اليقظة الفكرية ، فاشرأبت الى البلاد الأخرى تنقل عنها علومها وفنونها ومختلف أسباب نهضتها ... وكثيرا ما تنتقل الحضارة سالكة هـــذين الطريقين معا ، وذلك حينما يغزو الغزاة بلدا من البلاد ، ويتغلبون عليه بفنون عسكرية مستحدثة ، وعدة حربية مبتكرة ، ويسوسونه بأساليب جديدة ، فيوقظ ذلك وعى أهله ، ويحفزهم الى تلقى علوم الغزاة وفنونهـــــم ، ثم اجتلابها من مصادرها حتى بعد زوال غمة الاحتلال .

واذا نظرنا الى حضارات الأمم القديمة المتجاورة التى تعدد غزو بعضها لبعض نجد التشابه بينها وثيقا الى حد

يكاد يجزم بتزاوجها • فالمعابد والتماثيل والأضرحة الأثرية وغيرها من الآثار الحضارية والتقاليد التى جالدت الزمن فى الهند والصين واليابان وجزر الهند الشرقية وما جاورها من بلاد الشرق الأقصى تكاد تتجانس •• وكذلك تتشابه ديانات تلك البلاد وتقاليدها وثقافاتها تشابها لا يتوفر الا بالتلقن أو الاقتباس • وتدل آثار آشور وكلدية وبابل على أن مبدعيها تأثروا بفنون كل من الحضارة الآسيوية ، وحضارة مصر القديمة ••• ولا عجب فقد كانت تلك البلاد الواقعة بين آسيا ومصر مرتادا لجيوشهما ولقوافل التجارة المتبادلة بينهما •

ويرى مؤرخو الغرب أن الحضارة الأوربية الحديثة وليدة الحضارة الاغريقية فغزو الرومان لغرب أوربا ، وغزو النورمانديين لانجلترا ، وما تبع ذلك من غزوات ، أيقظ وعى الشعوب فى تلك الأصقاع ، ولفتها الى ثقافة الغزاة ، فأقبلت على المصنفات اللاتينية التى كانت تعكس الفكر الاغريقى ، ونهلت منها ، وغذت لغاتها الأصلية بفيض من كلماتها • وتهيأت بذلك للنهضة الحديثة التى بدأت كما يقول أولئك المؤرخون بسقوط القسطنطينية ونزوح علماء الاغريق الى غرب أوربا مزودين بمزيد من المؤلفات الاغريقية •

ونحن نسلم لهؤلاء بأن اثر الثقافة الاغريقية كان فعالا فى حركة نهوض أوربا خلال العصر الوسيط • ولكننا ننكر أن الفكر الاغريقى هو الذى عاونها على الخروج من

ظلمات ذلك العصر ؛ واطلع فجر نهضتها الكبرى ، وآذان بانبثاق العصر الحديث • ونقرر مع المنصفين من المؤرخين الغربيين ، وهم قلة ، أن تيار اليقظة الاوربية ابتعد فجأة عن الموارد الاغريقية — أو ابتعدجانبه الرئيسى عنها — وعرج ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى على الموارد العربية • ومن ثم ظهرت فى أوربا بوادر نهضة علمية أدبية ذات خصائص جديدة شبيهة بخصائص ثقافة العرب . فكيف تم ذلك ؟ وما هى النتائج التى ترتبت عليه ؟ ان الرد على هذين السؤالين هو موضوع كتابنا هذا •

❋ ❋ ❋

لم يكن القادة والملوك الهمج يدعون الدعاوى حين يشنون غاراتهم على البلاد الأخرى • فقد كان قصدهم منها سافرا ، وهو النهب والسلب ، وتوسيع دائرة الملك والسلطان ، وتحقيق الأمجاد • ولكن الفتوحات الاسلامية شذت عن هذه القاعدة لأول مرة فى التاريخ ، وتوخت تحقيق رسالة تسمو على مجرد الغزو والفوز بالأسلاب والأمجاد ••• كان الهدف الأول لتلك الفتوحات نشر الاسلام ، وتلقين الناس تعاليمه النبيلة ، وهدايتهم الى مقاصده الجليلة • ولهذا لم تنحسر هذه الفتوحاتويتبدد أثرها كغيرها من غزوات الهمجولم يبطىء تزاوج حضارتها بحضارات الأمم المفتوحة كما كان يحدث قبلها • فالحماسة التى كان العرب يغرسونبها بذور علومهم وآدابهموفنونهم فى الأمم التى فتحوا بلادها جعل الغرس يسرع فى نموه

على مر الحقب ·· وقد بلغ ذروة نمائه حين انتقل من الأندلس الى أوربا ، واختلط بالثقافة الأوربية ،فتمخض عن حضارة العصر الحديث ·

لقد ظهر أثر حضارة مصر القديمة واضحا فى بلاد الشرق الأوسط التى تعرضت لغزو الفراعنة · وكذلك ظهر أثر حضارة الاغريق فى البلاد التى ارتادتها جيوشهم ولكن الخير الذى عم تلك البلاد نتيجة للغزو المذكور لم يتوفر لها عن قصد ، وانما توفر عرضا ، فكان نعمة تولدت عن نقمة · أما الفتوحات الاسلامية فتختلف عن مثل تلك الغزوات ، لأنها استهدفت من أول الأمر نشر الثقافة الاسلامية ، ووضعت هدفها هذا نصب عينيها ، فأنتج ذلك نتيجته المرتقبة ، وهى عمق أثر تلك الفتوحات بل لقد تمخض آخر الأمر عن الحضارة الاوربية التى بلغت اليوم ذروة لم تكن متوقعة · ونحن لا ننفرد بهذا القول ، ولا نميل فيه مع الهوى ، فقد سبق اليه قوم ليسوا شرقيين وليسوا مسلمين ··· بيد أننا لن نكتفى هنا بترديد أقوال هؤلاء ، وانما سنقدم فى ثنايا الكتاب أدلة على صحة قولنا ، جديرة بتدبر المنكرين ·

لم تجرؤ البلاد المتحضرة ، بعد الفتوحات الاسلامية ، على شن حروبها التوسعية الاستغلالية دون أن تبررها بدعوى استهداف أهداف انسانية أو حضارية · وقد وضح ذلك أول ما وضح فى حروب نابليون التى اكتوت مصر بنيرانها قبل غيرها من البلاد ·· ألم يدع هذا

العسكرى الطموح أنه قصد بها نشر مبادىء الثورةالفرنسية والقضاء على القوى الرجعية التى تحاول خنق تلك الثورة وهى فى مهدها ، وتقويض نظام الاقطاع المعيق للتطور الحضارى ؟ بيد أن سيرة نابليون تدلنا على أن هذه الأهداف كانت ثانوية فى نظره ، أما هدفه الرئيسى من غزواته فكان انشاء امبراطورية عالمية يتسلط عليها بتنصيب اخوته وأقربائه و (ماريشالاته) ملوكا وحكاما لمختلف بلادها ٠٠ ولكن أطماع نابليون الشخصية لم تحل دور تمخض حروبه عن نتائجهـــا المرموقة ، وهى تقويض أركان الاقطـــاع بالفعل ، وازدهار النظام الرأسمالى الناشىء ؛ وتقارب الدول الأوربية ، وتزاوج ثقافاتها ، وتحول آدابها وفنونهـــا الى اتجاهات جديدة ، وسرعة تطورها ٠

ومن الواضح أن غزو نابليون لبلادنا أيقظ وعينا ، وحدا بنا الى التطلع للثقافة الغربية التى نهضت بأوربا ، ومكنتها من صنع الاسلحة الفتاكة التى قهرتنا وقتذاك ، فأخذنا نغترف من معين علومها وآدابها أملا فى اللحاق بها ومنافستها فى ميدانى العلم والأدب ٠٠٠

ومن الواضح كذلك أن هذه النتيجة لم تخطر ببـــال نابليون قط، فالسبب الذى دعاه الى افتتاح حروبه الطاحنة بغزو بلادنا هو فتح بلاد الهند كما هو معلوم ، وانتزاعها من براثن انجلترا التى كانت تستمد منها أسباب الثروة والقوة والسلطان ٠ أما اصطحابه لبعض مواطنيه من أهل العلم والفكر الى مصر ، فلم يكن القصد منه تلقيننا علوم

الغرب وفنونه ، ولكن دراسة مصر على نحو يمكن فرنسا من استغلالها أو الافادة من احتلالها على أفضـــل وجه • ولا يحتاج هذا كله الى الافاضة فى شرحه ، واقامة الأدلة على صحته . فهو معلوم ومسلم به •

وأحدث غزو نابليون لأسبانيا أثرا شبيها بالأثر المتقدم الذكر ، اذ استيقظ الوعى القومى هناك على دق طبول الحرب ، وهب الشعب الأسبانى مدافعا عن مصالحـــه الوطنية ، وعن حريته وكرامته ، وخاضت الآداب والفنون ميدان الكفاح مع الشعب فى سبيل احقاق حقه فى التمتع بحياة أعز وأفضل • ولم تلبث أن ازدهرت نهضـــة أدبية فنية يعرف أدباؤنا من ممثليها : « جويا » فى ميدان الفن ، و « بلاسكو ايبانيز » فى ميدان الأدب •

وحدث فى روسيا القيصرية نفس الأمر بعد غــزو نابليون لأراضيها ، فلم يكد القرن التاسع عشر يقترب هناك من منتصفه حتى صار المجتمع الروسى المثقف أشبه بالمجتمع الباريسى ، لفرط محاكاته له فى جميع المظاهر الحضارية وخضع الأدب أول الأمر لذوق هذا المجتمع المقبل عليه ، وأخذ يحاكى بدوره الأدبين الفرنسى والألمانى ، وعندما نما وتجاوز عهد الطفولة والمحاكاة بدأت مقومات شخصيتــه تظهر شيئا فشيئا حتى تغلب على حاجته الى المحاكاة ، وظهر لونه القشيب الذى يمثله انتاج جوجول وبوشكين ثــم دوستوييفسكى وتولستوى وغيرهم •

وابتلى العالم بعد حروب نابليون بالحروب الاستعمارية وقد ادعت الدول التى شنتها كذلك أنها لم تقصد من ورائها الا نشر حضارة الرجل الأبيض فى البلاد المتخلفة . ونحن هنا فى الشرق نعلم مبلغ افتراء أولئك المستعمرين على الحقيقة ، فقد وضح بعد احتلالهم للبلاد التى ادعـــوا الرغبة فى معاونتها على الأخذ بأسلوب الحضارة أنهـم لم يقصدوا غير استغلالها ، ومن الطبيعى أن يدفعهم قصدهم هذا الى السعى لابقاء تلك البلاد فى وهدة التأخر حتى يضمنوا استمرار استنزافهم لموارد خيراتها . وهكذا عملوا على عرقلة نموها وازدهارها من حيث ادعوا أنهم يعملون على رفع مستواها المادى والمعنوى ، وقد أطلقوا ارساليات التبشير فى كل بلد يطمعون فيه ، وسخروها فى التمهيد لاحتلاله ، وفى اخضاع أهله لهم فكريا قبـل اخضـــاعه عسكريا وسياسيا ... واذا كان العرب قد فتحوا الأمصار للتبشير بدينهم الحنيف ، فان المستعمرين بشروا بدينهم ليفتحوا الأمصار . وترتب على ذلك أن وجدت الأمم التى دخل العرب بلادها منهلا من الثقافة العربية متاحا فروت منه ظمأها الى المعرفة . وقفزت فى طريق الصعود قدما ، على حين بذلت الدول الاستعمارية التى تدعى معاونة الأمم المتخلفة فى ميدان الاقتصاد والثقافة ، قصارى ما فى وسعها للحيلولة دون تقدمها فى كل ميدان .

واذا كان جهود المستعمرين فى تلك السبيل قــد أسفرت فى بادىء الأمر عن تأخـــير حركة التطور فى

مستعمراتها ، فانها لم تستطع أن توقفها • وسرعان ما أيقظ الاستغلال والاستبداد وعى الشعوب التى وقعت فى براثنها ، ونشطت حركة مقاومتها لها ، واشتد نضالها فى سبيل استرداد حريتها المسلوبة ، وحقوقها المغتصبة ، الى أن دبت الحياة فى أوصال ثقافتها التى ما كادت تقوى على المجالدة حتى اقتحمت ميدان النضال السياسى لتأييد حركة التحرر ؛ وكان من الطبيعى أن تستمد تلك النهضات الثقافية الناشئة ، فى مثل تلك الحال ، أسباب ازدهارها من ثقافة المستعمرين وغيرهم من الأجانب ، وأن يحدث التزاوج بين تلك الثقافات أثره رغم الحوائل والسدود •

* * *

ان الحضارة لا تنتقل من بلد الى بلد كما ينتقل المصباح الذى يضىء كل مكان ينتقل اليه دون أن يعتوره هو نفسه أى تبدل • ولكنها ترسل شعاعها الى البلاد الأخرى فيستضىء بنورها كل بلد هيأته ظروفه لرؤية ذلك النور • وهى تكتسب أينما حلت قوة وحيوية مستحدثتين ، وخصائص مستمدة من مميزات أهل البلد الذى تؤثر فيه وتتأثر به فى تفاعل متوال مستمر ، ولا تلبث أن تتخذ طابعا جديدا متولدا من ذلك التفاعل •

والحضارة فى كل حقبة معينة تبلغ فى بلد من البلاد مستوى من الازدهار لا تبلغه فى غيره؛ وتنتقل فيه من مرحلة تقدمية الى مرحلة أبعد منها تقدما ، وقد بلغت فى مصر

القديمة أعلى مستوى عرفه ذلك العصر ، ثم أرسلت نورها الى ما حولها فاستضاءت به البلاد المجاورة • وكانت بلاد الاغريق مهيأة أكثر من غيرها للاهتداء بذلك النور . ولم تلبث أن ورثت مشعل الحضارة عن مصر فازداد في يدها توهجا • بيد أن هذا المشعل لم يحدث أثره الفعال على الفور حين انتقل منها الى غرب أوربا حسبما يزعم أغلب المؤرخين الأوربيين ، ولكنه أحدث ذلك الأثر بعد أن عرج على بلاد العرب فاكتسب منهـا نورا على نور ، بل ازدان بمقومات وخصائص جديدة هي التي أمدته بالقوة الخارقة الدافعة ، ومكنته من فتح سبيل الانطلاق الحضاري أمام أوربا الغربية ، ومن دفعها الى أمام •

وهناك من يظن أن أمة العرب كانت غير متحضرة حينما اغترفت من ثقافة الاغريق • والواقع انهـــا كانت قبل ذلك ذات حضارة مرموقة استمدت أسسها من حضارتين عريقتين سابقتين على الحضارة الاغريقية هما حضارتـــا الفرس والمصريين القدماء، وكانت الحضارة الأولى تتجلى في أبهى مظاهرها وراء حدود العرب الشرقية مباشرة ، فلم يتعذر على هؤلاء أن يغترفوا من ذخائرها ما يلائمهم ثم انهم تلقوا الحضارة المصرية عن طريقين تجـــاريين : أولهما طريق الحبشة فاليمن ، وثانيهما طريق طـــور سيناء ففلسطين • وهكذا أصبحت لهم حضارة عربيـــة الصبغة ، نبتت في الأصل من بذور الحضارتين المذكورتين فلما اغترفوا من معين الثقافة الاغريقية ــ وكانت متأثرة

الى حد كبير بالثقافة المصرية القديمة - لم يجدوا صعوبة فى استيعابها وهضمها ، ولم يعدموا القدرة على مزجها بثقافتهم ، وطبعها بطابعهم ، ولم يلبث هذا المزيج الثقافى أن تمخض عن حضارة عربية أعلى مستوى ، وأجد طابعا من سابقتها · ولزيادة الأمر ايضاحا نقول : ان العرب تأثروا بالحضارة المصرية القديمة التى كانت منتجاتها وثقافتها تزحف اليهم عن طريق الحبشة وطريق الشام، ثم لم تلبث الحبشة والشام أن تحضرتا أيضا متأثرتين بالحضارة المصرية ، وحملت القوافل التى تنقل آثار الحضارة المصرية الى الجزيرة العربية ، آثار حضارتيهما أيضا · وبدأت بذور تلك الحضارات المختلفة تثمر فى الجزيرة وتنتج حضارة جديدة مطبوعة بطابعها ···

وانتقلت الحضارة المصرية كذلك الى فينيقيا ، ثم الى اليونان القديمة عن طريق فينيقيا · وتفجر ينبوعها فى تلك البلاد فأنتج الحضارة الاغريقية التى بهرت العالم ، وامتد نورها الى البلاد المجاورة ·· ومن بينها البلاد العربية ·· وبذلك يمكن أن نقول ان بقايا من حضارة مصر القديمة انتقلت هذه المرة أيضا الى العرب ·· ولكن عن طريق اليونان القديمة بعد أن تكيفت هناك تكيفا جديدا ، وكان العرب مهيئين لاستقبالها خير تهيؤ ، وقادرين على تطويرها من جديد ، وطبعها بطابعهم ورفعها الى مستوى حضارى أرقى من مستوى حضارتى مصر واليونان القديمتين

كذلك تلقت أوربا الغربية الفكر الاغريقى وتأثرت به · ولا يزال أغلب مؤرخى الغرب يرون حضارتها الحديثة

تولدت من تلك الثقافة ، فاذا ووجهوا بأثر العرب فى بناء حضارتها المذكورة أنكروه كل الانكار ، زاعمين أن فضل العرب ـ ان كان للعرب فضل ـ يقتصر على اسهامهم فى صيانة التراث الفكرى الاغريقى من عصف السنين، ونقله سالما الى الغرب ·· ولكننا سنضطلع فى هذا الكتيب بالتدليل على أن الحضارة القديمة حين انتقلت ـ خلال طوافها المتلاحق ـ من بلاد الاغريق الى الجزيرة العربية ، سمت فى هذه الجزيرة الى مستوى حضارى جديد ، واتخذت طابعا عربيا عميزا كان له هو الأثر الأقوى فى تحويل التيار الفكرى الأوربى من الوثنية الاغريقية الى الاتجاه الانسانى المهذب ، وتمكينه من اقامة صرح الحضارة الحديثة ·· ولا ينفى هذه الحقيقة التى سنقيم الأدلة على صحتها ، تسليمنا بأن الحضارة الغربية تأثرت فى وقت ما بالحضارة الاغريقية ، واستعانت بها على النماء والازدهار ·

***

ان أثر التزاوج الثقافى يبدو اليوم واضحا فى كل بلد من بلاد الارض ، وهو يتم فى الوقت الحاضر دون حاجة الى هجرة القبائل ، أو غزو الغزاة ، أو الى تجار ينقلون مختلف الثقافات مع بضائعهم ، فالأمم تسعى اليه فى العصر الحديث عن قصد راغبة فيه ، مدركة لأهميته، بعد أن كان يحدث عفوا ، وبطرق لم تكن تستهدفه أصلا ومن المعروف أن وسائل المواصلات التى ربطت الدول بعضها

ببعض ، ومختلف الاختراعات التى تنقل ثمار الفكر البشرى على متن الأثير قبل أن تنقلها الكتب والصور والصحف والأفلام ، مكنت التزاوج الثقافى من أن يخطو خطواته الأولى فى سبيل الامتزاج الشامل العالمى ، ونحن نرى الآن كيف أن أى اختراع ، أو أية فكرة يبزغ نورها فى أى بلد من البلاد تتلقفها البلاد الأخرى ، وتدخل عليها التحسينات وتطورها ، وتولد منها أفكارا أخرى على نحو يستثير الاعجاب والعجب .

وإذا كانت ثقافات الدول الغازية قد قامت فى الزمن الغابر بعملية غزو معنوى لثقافات البلاد المعتدى عليها فضلا على الغزو المادى ، فان مثل هذا الغزو المعنوى الذى يستهدف تدمير القوى الروحية المناهضة للاستعمار يتعذر حدوثه فى هذا العصر الذى نما فيه وعى الشعوب ، وقويت روحها الوطنية حتى أصبحت حصنا يستحيل على القوى الاستغلالية اقتحامه رغم ما تبذله ، حتى فى هذه الأيام ، من دعايات مغرضة مصبوبة فى قوالب ثقافية .

ولا نكران أن الأمم التى تسير فى أول الطريق الحضارى تحتذى الأمم المتقدمة عليها فى ميادين الأدب والفن والعلم، ولكنها عندما تتمكن من تحصيل قدر معين من الثقافة ، وبلوغ مستوى معين من الوعى ، تظهر مقومات شخصيتها بعد تخطيها مرحلة المحاكاة، ويتحول انتاجها الأدبى والفنى الذى يحتذى غيره الى انتاج أصيل يعبر عن أفكارها وخلجاتها ، ويمحص مشكلاتها ، ويعكس نقائض الواقع

المحيط بها ، ولا تلبث أن تبنى لها صرح حضارة قومية مطبوعة بطابعها الخاص ، وان كانت عالمية الأساس ٠

ان الحضارة الحديثة لم تزدهر على هذا النحو الحاضر الباهر الا بتزاوج حضارات الأمم المختلفة على مر التاريخ ٠ والتبادل الثقافى اليوم بين مختلف البلاد هو الكفيل باطراد تقدم الأمم ، وتطور الحضارة العام ، فلا غضاضة على بلد يستعين ببلاد أخرى فى ميادين العلم والأدب والفن ليحقق ازدهاره ، ما دامت الحضارة الحديثة نتيجة لجهود الجميع ، ومن ثم ملكا للجميع ٠

الإغريق والحضارة

اذا صح أن حضارة أوربا الحديثة نبتت من بذور الحضارة العربية القديمة فكيف نعلل غفلة الكثرة الغالبة من مؤرخي الغرب ومفكريه عن هذه الواقعة ، أو انكارهم لها ، وتمسكهم بأن أوربا مدينة بحضارتها ، من فرعها الى قدمها ، للفكر الاغريقى دون غيره ؟ ... من العنت أن نتهم أفراد هذه الكثرة جميعهم بالتعصب أو الجهل ، فكم من عالم ألمعى بينهم ينقب عن الحقيقة مخلصا ولا يخونها لجاه أو مال ... فما تعليل موقف أولئك العلماء اذن من الحضارة العربية التى لا يكاد الانسان ينفض عنها غبار التاريخ حتى تتجلى روعتها ، ويبدو فضلها على الحضارة الغربية واضحا غير منكور ؟

لعل عذرهم فى ذلك أنهم حين ينظرون الى أدب بلادهم ـ والأدب من أهم عوامل التطور الحضارى وأشدها أثرا ـ يجدون قسما غير قليل منه يعكس قسمات الأدب الاغريقى

أما قسمات الأدب العربي فلا يبدو في أدبهم أثر منها برغم أنها تغلب فيه على القسمات الاغريقية ، ويرجع ذلك الى أن الأدب الاغريقي القديم يبدو متميزا واضح المعالم لقارىء هذا العصر نظرا لوثنيته البعيدة العهد ، في حين أن الأدب العربي انســـاني طبيعي من نوع الأدب المعاصر ، ومن ثم لا يفطن الى أثره في الأدب الحديث الا الملم بدقائقه .. ومؤرخو الغرب غير ملمين بها .. ثم ان بعض كتاب الغرب لا يزالون يعيدون صياغة بعض المسرحيات والمنظومـــات القصصية الاغريقية،محتفظين لها بروحها واتجاهها الفكرى وأسماء أشخاصها وأماكنها . وهكذا يحتفظ بعض الانتاج الأدبي الأوربي بتراث الاغريق الفكرى ، ويعكسه واضحا دون مواربة .

ويعرف حتى أنصاف المتعلمين في أوربا أسماء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الاغريق الذين يعاد طبـــع أعمالهم الفلسفية الى اليوم ، ويكثر الاستشهاد بها ، وقد ظلت فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو مسيطرة على العقول في أوربا الغربية طوال العصر الوسيط ، واعتنقها رجـال الكنيسة رغم وثنيتها ؛ وحرموا على المفكرين مناقشتها ، بله تفنيدها ، فامتدت لها جذور ، ورسخت أصول لم يسهل على الزمن أن يعصف بها ، وقـــد تولدت منها مذاهب مستحدثة في علم الفلسفة والنقد ، وظل الأصل مع ذلك متشبثا بالبقاء . أما من الناحية الأخرى فقد اســـتضاء بعض فلاسفة الغرب بالفلسفة العربية ، واقتبســوا بعض

كشوفها وطوروها ، ونسجوا منها مذاهب متكاملة دون أن يشيروا الى الأصل العربى الذى اقتبسوا منه · وهكذا ظهر لفرع ناميا متشعب الأغصان على حين ظلت الجذور خافية عن العيان فى أغوار التاريخ ·

ثم ان تماثيل الاغريق وغيرها من تراثهم الفنىلا تزال تستثير اعجاب هواة الآثار الفنية ، وتشحذ خيالهم ، على حين خلت حياة العرب الفنية من مثل ذلك الانتاج الفنى الذى حالت كراهية العرب للأوثان دون ازدهاره ·

فلا عجب، اذا خيل للمتعجل فى الحكم أن الحضارة الأوربية الحديثة وليدة الحضارة اليونانية وحدها ،مادامت شواهد هذه الحضارة الأخيرة هى التى تبدو واضحة – كما قلنا – فى مختلف ميادين الأدب والفن الأوربية ·

* * *

تولدت الحضارة الاغريقية من الحضارة المصرية انقديمة ، كما قلنا ··· ولا مجال هنا للتدليل على صحة هذه الواقعة التاريخية الكبرى · ويكفى أن نشير الى أن أغلب مفكرى الغرب اعترفوا بها ضمنا حين قرروا « أن مصر مهد الحضارات جميعا » ···

كانت حضارة مصرالقديمة حضارة زراعية ، أو بتعبير أدق ، حضارة متولدة من أوضاع مصر الزراعية وقتذاك · فلما هبت نسائمها على اليونان القديمة تأقلمت هناك ، واكتسبت طابعها الجديد من أوضاع تلك البلاد ·

كانت « المدينة » هى شكل الدولة وقوامها هناك ، وكان نظام الرق هو السائد ، فخلعت الحضارة المصرية حينما استقرت فى تلك المدن بردها الريفى ، أو الزراعى وتجملت ببرد المجتمع المرفه المستمرىء للبطالة ، المتكل فى معاشه على عمل عبيده وأرقائه ٠٠ مجتمع لا يتوسل الى آلهته أن توفر له الماء لرى أراضيه ؛ وتنقذ زرعه من الآفات ، وتوفر له كل أسباب الترعرع والازدهار ،ولكنه يتوسل اليها أن تحل له مشكلات حياته المدنية ، وتعينه على التنكيل بأعدائه ، وتنقذه من الشرور المقدرة له ، وتخضع له حبيبته ، وتيسر له كل أسباب المتع والملذات ٠٠٠ وقد ترعرع الفكر اليونانى حقا فى عالمى الفلسفة والادب ،ولكنه ظل - على الأغلب - محلقا فى سبحات الأحلام والتأملات ، لأنه لم ينزل الى ميدان العمل ، ويحتك به ، ويكتسب منه الواقعية الصادقة ٠ وأنى له ذلك وأهل الفكر والادب يحتقرون العمل لأنه مهنة العبيد، ويزدرون الواقع بالتبعية ولا يرون جمالا وسموا فكريا الا ما يتولد عن التـأمل المجرد ٠٠٠ وما من شك فى أن فلسفة الاغريق وأدبهـــم أسهما بقسط كبير فى بناء حضارة أوربا الغربية ، ولكنهما لم يضطلعا بهذه المهمة - كما يزعم الزاعمون - منذ عهد احياء العلوم فقط ، ولا يرجع اليهما قط الفضل الأول فى خروج أوربا من ظلمات العصر الوسيط الى أضـــواء العصر الحديث ٠٠٠ ألم يسودا أوربا حتى فيما قبل العصر الوسيط ؟ وظلا يسودانها ما بقى ذلك العصر ؟ ٠٠٠ فلو أن تلك القدرة كانت لهما حقا فلماذا طال العصر الوسيط هذا

الطول على حين كان مستضيئا بنورهما ؟ ... لقد زحف الفكر الاغريقى الى أوربا الغربية مع الزحف الرومانى ، ثم حمل العرب اليها نفحات جديدة منه مشبعة بالروح العربى ، ثم حمل علماء القسطنطينية الذين نزحوا الى الغرب بعد سقوط مدينتهم آثارا أخرى منه . فلماذا بدأت بشائر نهضة أوربا الحديثة منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى؟ .. كيف لا يكون هناك عامل آخر مرهون بهذا الوقت بالذات ، حفزها الى النهوض؟ ... اننا نزعم أن هذا العامل موجود فعلا ، وأنه الحضارة العربية التى انتقلت الى أوربا من الأندلس ، ومن بلاد عربية غير الاندلس فى الميعاد المشار اليه بالذات ، أى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى .. انتقلت الى أوربا وقتذاك فنقلتها من مرحلتها التطورية الوسيطة الى مرحلتها التطورية الحديثة .

❋ ❋ ❋

كان فكر الاغريق وأدبهم ينشران فى أوربا ، خلال العصر الوسيط ، باللغة اللاتينية التى لم يكن يلم بها الا قلة من المثقفين أغلبهم من رجال الكنيسة ، وكان فريق من هذه القلة يتعصب لأفلاطون ، وفريق آخر يتعصب لأرسطو الى الحد الذى لم تستطع معه حتى المسيحية أن تحدث أثرها ، وأن تؤتى وقتذاك ثمارها فى تلك البلاد .

وظهر من بين هذين الفريقين مؤلفون عمدوا الى وضع مؤلفاتهم باللغة اللاتينية طبعا ، لأنها كانت لغة الكتابة الوحيدة فى ذلك العهد ، وكان الجمهور الغارق فى

الجهل غير ملم بها بداهة ، فلم يتأثر بتلك المؤلفات الا عن طريق رجال الكنيسة وأتباعهم الذين كانوا يبثون مضامين بعضها في الاذهان ، وكان الناس هناك وقتئذ مسيحيين ، ولكنهم لم يتلقنوا تعاليم المسيحية الا عن أولئك الرجال الذين كانوا متشبعين بالفكر الاغريقى فصبغوا الديانة المسيحية بلونه الوثنى الاسطورى ••• بيد أن الاساطير الرمزية الاغريقية ، ذات المعانى الأدبية ، والدلالات الاجتماعية والسلوكية تحولت فى ذهن ذلك الشعب الغارق فى الجهالة الى خرافات مجردة من كل دلالة انسانية ومعنى شعرى ، فزادته امعانا فى ضلالات جهله •• على هذا النحو تأثرت أوربا الغربية ، خلال العصر الوسيط ، بحضارة الاغريق •

ان الأدب الأوربى الوليد وقتذاك لم يكن اذن يعكس نشاط مجتمعه الفكرى والعاطفى والمادى ، ولكنه كان يحاكى بلا وعى ، أو بوعى بدائى قاصر ، أدب الاغريق الأسطورى وهل من عجب فى ذلك ؟ ألم يكن معزولا عن الشعب ؟ ألم تكن حتى لغته غريبة عن الشعب ؟ فكيف يتأتى له أن يتأثر به ويعبر عن أفكاره وخوالجه ؟ ••• ولكن الحال بدأت تتحول حين اتجه التفكير الى التعبير عن ألوان النشاط الفكرى والعاطفى باللغة المحلية •

ففى عام ١١٦٥ أقدم الشاعر الفرنسى « بينيت دى سان مور » على ترجمة « قصة طروادة » من اللاتينية الى الفرنسية وحافظ على شكل الأصل فترجمها شعرا وقدم

لها بمنظومة هذه ترجمتها : « لهذا أريد أن أشرع فى نظم ملحمة وجدتها مكتوبة باللاتينية .. وسأواصل ترجمتها طالما أسعفتنى الموهبة والقدرة ..وغايتى أن يتمتع بقراءتها كل من يجهل اللغة اللاتينية » .

بهذا العمل الأدبى فتح « دى سان مور » باب ترجمة المؤلفات الاغريقية ، المكتوبة باللاتينية ، الى الفرنسية .

وما كثرت الأعمال الأدبيـــة التى نشرت يومذاك بالفرنسية ، وتزايد عدد قرائها حتى نزع بعض أهـــل القلم الى تأليف منظومات قصصية على غرارها .. ثم تخطوا مرحلة المحاكاة شيئا فشيئا ، وحاولوا أن ينتجوا أدبـــا أصيلا يعكس واقعهم ، بدلا من الاغتراف الاعمى من أدب الاغريق ، أو التوليد منه .. وقد أعوذتهم نماذج من الادب الانسانى الواقعى يسترشدون بها وهم يخطون الخطوات الاولى فى هذا الصدد لتحقيق بغيتهم ... وفى هذا الوقت بالذات واتتهم الفرصة السعيدة ، وزودهم « الشـــعراء التروبادور » أو الشعراء المنشدون الاندلسيون بذلك اللون المنشود من الأدب . وهو اللون الذى تميز به الادب العربى قبل أن يتميز به أى أدب غيره من آداب العالم .

واذا اقتضانا هذا البحث أن نحدد تأثير كل من الادبين الاغريقى والعربى فى أدب الغرب فلابد من تحديد الخصائص التى تميز بها كل من هذين الادبين ، وعند ذلك سيتضح لكل منكر كيف تحول أدب أوربا ــ ابتداء من أواخـــر

القرن الثانى عشر الميلادى ـ من المصادر الاغريقية الى المصادر العربية .

قلنا ان الفكر الاغريقى تأثر بنظام الرق الذى كان خاضعا له ، فاحتقر العمل اليدوى الذى اختص به العبيد ومن ثم احتقر الحياة المادية ؛ ونزع الى التجرد ، ووضح ذلك فى فلسفة أفلاطون الذى كان الوجود الواقعى يبدو فى نظره شائها حقيرا ، وكانت الافكار والمعانى المجردة هى التى تستأثر بلبه ، وتستحوذ على تفكيره . وقد امتد أثر ذلك الى الأدب الذى أغفل ، على الأغلب ، تمحيص الواقع وتحليل ظواهره ، بل أعرض عن دراسته ، وراح يحاول الخلاص من مشكلات البشر ، وتربص الأقدار لهم بالتوسل الى الآلهة ، أو بالحلول الاسطورية الخرافية .. ومسرحية أوديب خير شاهد على صحة ما نقول .

أما الحب فقد عرفه الاغريق على نحو مغاير للنحو الانسانى الذى عرفته البشرية ، أو عرفه الفريق المتحضر المتميز من البشر فيما بعد ... قال أحد الفلاسفة يصف حب الاغريق ، و الحب الوثنى القديم الذى ما زالت له رواسب فى بعض النفوس الرجعية الى اليوم : ـ « ظهر الحب الجنسى تاريخيا ـ لأول مرة ـ فى صورة عاطفة مشبوبة ، وبدا كأنه « الشكل الاسمى » للغريزةالتناسلية .. ولكننا نرى فى جميع أطوار التاريخ ، أن اقتران الزوجين لم يكن يتم بدافع الحب ، ولكن أهلهما هم الذين كانوا يقررون زواجهما بدافع المصلحة على أن يتكفل الزمن

بالتقريب بينهما ، وتوفير اعتيادهما لعلاقة الزوجية ، بيد أن العاطفة الضحلة المتولدة من تلك العلاقة لم تكن ميلا ذاتيا ، ولكن واجبا موضوعيا · أما علاقة الحب المشابهة لما نكابده في هذا العصر فلم يظهر لها أثر في العصر القديم الا خارج نطاق المواطنين الاحرار ، أي لم يظهر لها أثر الا بين الأرقاء فهؤلاء هم الذين كانوا يتغنون ـ كما يبدو في الملاحم والمسرحيات القديمة ـ بمباهج الحب ، وعذوبة أوجاعه ·· أما الحب في المجتمع الحر القديم فكان وليد الخيانة الزوجية ·· كان يحيك المكائد للفوز بملذات الفسق ·· ان الحب الجسدي الذي ساد العصر القديم ، وشبيهه الذي نما في العصر الوسيط لم يترعرعا في أحضان الزوجية ؛ ولكن في حمأة الرذيلة · وقد سبق لنا أن شرحنا الحب الطاهر ، حب الفروسية الذي عرفته أوربا فيما بعد ··· بيد أنه لا تزال بين الحب الفاسق الذي يهدم الزوجية ، والحب الطاهر الذي يبنيها ويدعمها ، شقة طويلة لم يقطعها ذوو النفوس النبيلة الى آخر الشوط » ···

وبالرجوع الى قصص الاغريق ومسرحياتهم نجد أنها عند تعرضها للحب لا تصور منه الا ذلك اللون العتيق الذي فسره ذلك الفيلسوف ··· أي الحب الضحل المتولد من العلاقة الزوجية المفروضة على الزوجين ، والحب الفاجر ·· حب الزوجة التي تعرض عن زوجها لتنصرف الى عشيقها ·· والعشيق الذي يقتل الزوج فيخلو له الجو ويتزوج عشيقته ثم تتكرر المأساة ، فتعلق العشيقة بعد الزواج

برجل آخر يقتل زوجها الجـديد ... ان الحب الذى تصوره لنا ملاحم الاغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدى العنيف المخيف ... الحب الذى تراق فى سبيل ملذاته الدماء ، وتزهق الأرواح ، وتقتحم الأهوال ... الحب الذى يتحرق الى القسر والأسر والاغتصاب . أما الحب الانسانى المتبادل . الحب الطاهـر العفيف . الحب الذى يورث المروءة والنخوة والنبل ، ويدفع صاحبه الى نصرة الضعيف ونجدة الملهوف .. ان هذا الحب الشبيه بحب العذريين العرب لم تعرفه أوربا الا بعد اتصالها بالعرب ، ولم تصوره القصص الاوربية الا منذ ذلك الحين .

وكانت تصرفات الاغريق التى تصورها أعمالهم الادبية تتسم بالخشونة والعنف والتباهى بالقوة الجسدية .. كانت حروبهم مجازر ، ومصارعاتهم الرياضية مذابح؛ وفروسيتهم غلظة وقسوة ، وشجاعتهم عنفا وبطشا . أما الشـفقة والرحمة والمغفرة فصفات تحقر صاحبها بدلا من أن ترفع قدره لأنها تدل عندهم على الضعف والعجز والجبن . ثم انه عندما اضطلعت أعمال ذلك العهد الادبية بتصوير تلك الصفات والتصرفات عمدت كعادة الادب القديم الى المبالغة والتضخيم والتفخيم حتى أصبحت فى نظرنا أشبه بقـلاع الأقدمين الغليظة البنيـان ، وبمعابدهم الضخمة العمد والجدران .

لم تعرف أوربا الى ما قبيل العصر الحديث، الا هذا اللون من الادب ، ثم طلعت في كل من اسبانيا وايطاليا،

خلال القرن الثاني عشر ، بشائر انتاج أدبي كتب بلغة هذين البلدين ، وتضمن لونا جديدا من الأفكار والمعاني بدا يناقش المؤلفات المنسوجة على غرار المؤلفات الاغريقية ... وظهر هذا اللون الجديد في الوقت الذي بدأ فيه بعض المؤلفين الفرنسيين ينشئون القصص المكتوبة بالفرنسية • وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق - فتزاوجت هذه المؤلفات المختلفة المصادر ، ونحا نتاجها منحى انسانيا صادقا لم تعرف أوربا نظيرا له من قبل •

كان الانتاج الادبي الاغريقي يبالغ ، كما قلنا ، في تصوير الواقع ، ويضخم الميول البشرية العنيفة ، ويجسد الأوهام والخرافات في أشخاص آلهة الملاحم والمسرحيات المنظومة ، وفي الحيوانات الخرافية ويفسر ظواهر الطبيعة تفسيرا أسطوريا •• أما الانتاج الادبي الاصيل الذي أخذ يتبثق في أوربا خلال القرن الثاني عشر فقد حرص على تحري الصدق في تصوير الواقع ، وفي تحليل العواطف الانسانية المهذبة • لقد انقلب الأدب الاوربي حينذاك من أدب وثني أسطوري الى أدب انساني واقعي فلماذا وقع هذا الانقلاب في المكان والزمان الذي وقع فيهما بالذات ؟ وما هي عوامل وقوعه ؟ •• ان كل منقب في تاريخ الآداب القديمة لا يجد شبيها لذلك الانتاج الا هنا في الشرق ... وفي الجزيرة العربية بالذات •

ولكن لماذا نجزم بأن هذا التغير الذي طرأ على أدب غرب أوربا حينئذ يرجع الى تأثره بالادب العربي ؟ ألم

نقل انه كان اغريقى الموضوع ؛ لاتينى اللغة ، منعزلا عن الجماهير فلما طفق بعض المؤلفين يكتبونه بلغاتهم الوطنية عاد فاتصل بالجماهير ، فلماذا لا تكون هذه الصلة هى التى سددت خطاه ، وردته طبيعيا انسانيا ؟ ...

لقد ألمعنا الى الرد الماعا حين قلنا : ان ذلك التحول كان يحتاج الى نماذج يسترشد بها الأدب الأوربى الجديد فى طوره الجديد ... فنظرة الى المسرحيات التى انتشرت فى أوربا بعد كتابتها باللغات المحلية تدل على أنها احتفظت على الأغلب بالاتجاهات الاغريقية القديمة ولم تختلف الا من حيث الشكل .. كانت تصور معجزات القديسين والقديسات ، على حين كانت مسرحيات الاغريق تصور دعايات للآلهة ، ورحمتهم بالناس ... ان مؤلفى غرب أوربا لم يدخلوا أى تغير على مسرحيات الاغريق اللهم الا استبدال القديسين ، والأولياء الصالحين ، بالآلهة والكهنة .

ولم يكن يسهل تبدل تلك الحال الا بهبوب نسمات منعشة من أدب متجدد الألوان . وهذا ما كان فى ذلك الأوان ... فقد أمد الأدب العربى أوربا الغربية بالنماذج الأدبية التى كانت تحتاج اليها ، وحول أدبها الى اتجاهات جديدة كانت السبب فى انطلاقه قدما فى طريق السمو الفنى . وأقل ما يقال عن فضل العرب على الأدب الغربى ، انهم سهلوا عليه بما تقدم سلوك سبيل التطور الطويل ، واختصروا له زمن الانتقال الى المرحلة الحضارية التى وصل اليها فى العصر الحديث فاذا قيل ان الأوربيين

كانوا سيصلون الى ما وصلوا اليه من مستوى حضارى سواء أعانهم العرب على بلوغ ذلك أو لم يعينوهم ، قلنا ان العرب أسهموا فى بناء صرح الحضارة الأوربى ، وانهم كانوا السبب فى سرعة بنائه • وفى ذلك فضل أى فضل •

وقد يؤخذ على قولنا المتقدم أن الأعمال الأدبية العربية ما كانت لتصلح نماذج لأدب أوربى أصـــيل ، فما دام الأدب يعكس نشاط مجتمعه ، ويعبر عن معتقداته ومشاعره فكيف تصلح الأعمال الأدبية لأمة من الأمم نماذج لأدب أمة أخرى تختلف عنهـــا فى الصفـــات والأفكار كل الاختلاف ؟ •• وردنا على ذلك أننا لم نقصد بما قلنـــا ان مؤلفى الغرب وجدوا فى نماذج الأدب العـــربى منهلا يغترفون منه الموضوعات والمعانى • وانما قصدنا أنهـــم تعلموا منها فن التعبير الصادق عن الواقع ••• بيد أن هناك حقيقة أخرى قمينة بالتسجيل ، وهى أن الأوربيين كانوا أثناء اتصالهم بالعرب قبل ذاك عن طريق الأندلس وصقلية وفلسطين قد اقتبسوا بعض تقاليدهم العسكرية وتطبعوا بما راق لهم من طباعهم ، وتحلوا بشمائلهـــم وتشبعوا بكثير من قيمهم الحضارية ، ونفروا من خشونة الاغريق الوثنية ، وترتب على ذلك أنهم وجدوا فى الأدب العربى ما يعبر عن نفس هذه الطباع والشمائل والقيـــم الجديدة التى أخذت تتأصل فيهم ••• فكيف يقال ، والحال هذه ، ان الأدب العربى كان وقتذاك غريبا عنهم ولا يعكس طباعهم وأخلاقهم ؟ ••

وهناك سؤال يجدر طرحه والاجابة عليه : اذا كانت الثقافة العربية قد تزاوجت بالثقافة الاغريقيـــة الوافدة عليها ، فلماذا ظلت مضادة لها في اتجاهاتها حتى بعـــد ذلك التزاوج ؟ وقد يحسن أن نعيد السؤال على نحـو أوضح : ما هي العوامل التى كانت تطبع كل ثقافة تفد الى جزيرة العرب بذلك الطابع الانسانى الواقعى الصادق؟

قلنا ان النظام السياسى والوضع الاقتصادى فى بلاد الاغريق هما اللذان طبعا الحضارة المصرية بالطابع اليونانى عند انتقالها الى تلك البلاد ··· فهل حدث مثل ذلك فى الجزيرة العربية ؟ هل كان وضع العرب الاقتصادى ، ونظامهـم السياسى ؛ يطبعان كل ثقـــافة وافدة عليهـم بطابعهما ؟ ··· لاشك فى ذلك ، فهذه قاعدة طبيعية لا تختلف ··· ان قلة الواحات وعيون الماء فى الجزيرة العربية الصحراوية جعلتها مسرحا لتقاتل القبائل فى سبيل الفوز بخير الموارد ، وأصبحت الحروب القبليـة ديدن العرب · ومن هذه المحنة نشأت خير الصـــفات العربية التى صقلت طبيعة العرب الانسانية وهيأتهـا للصعود فى مدارج الحضارة ··· وسيرد شرح ذلك فى حينه ·

بذور الحضارة

ان عقلية العرب التى صفت صفاء سمائهم ،وتألقت تالق نجومهم فى سمائها الصافية · ان هـــذه العقلية الثـــاقبة المنقبة المتغلغلة الى الأغـــوار ، المتسربة الى الأطراف والحواشى ، هى التى طبعت ذهن علماء الغرب، قبيل عهد احياء العلوم ، بطابعها الفذ ، وهى التى علمتهم كيف يدرسون المعضلات ، ويحققون الشبهات ،ويحللون المشكلات ، وينقبون عن الأســـباب الرئيسية للأمور ، ويستنبطون النتائج المترتبة عليها · ان هذه الميـــزة الذهنية ··· ميزة الدقة العلمية التى اكتسبها علمـــاء أوربا من العرب ـ كما قلنا سابقا ـ هى التى مكنتهم من تحقيق كشوفها العلمية ··· غير أنهم لم ينجحوا فى ذلك الا فى ظل حرية الفكر التى استافوا عبيرها العبق من الجزيرة العربية أيضا . فهاموا بها هياما ، واستبسلوا فى النضال لانتزاعها من أيدى رجال الكنيسةالمتعصبين

المستبدين ، وما فازوا بها حتى تهيأت التربة الصالحة لغرس بذور حضارتهم ٠

بيد أن مهمة العرب فى المعاونة على بناء الحضارة الغربية لم تقف عند هذا الحد ، فهم لم يغرسوا فى نفوس علماء الغرب حب حرية الفكر وتقديسها ولم يلقنوهم دقة البحث فحسب ، ولكنهم أمدوهم بعلم هو أساس الجانب المادى من الحضارة الغربية بحق ٠٠٠ أمدوهم بعلم الرياضة ، أو بنظريات استحدثوها فى علم الرياضة ففتح ذلك لأوربا طريق التقدم العلمى فسيحا ممتدا الى غير حد ٠

لا يكاد يجادل أحد فى أن الجانب المادى من الحضارة الحديثة يقوم أساسا على الرياضيات ؛ فهى ، أى الرياضيات كانت ولا تزال المفتاح الرئيسى حتى لمغاليق العلوم الطبيعية والجغرافية والهندسية وغيرها ٠ بل لقد أخذ ديكارت يستعين بها لوضع فلسفة يفسر بها الوجود ،ثم اعتمد عليها برتراند راسل أخيرا لحل معضلاته الفلسفية وسبك معادلاته المنطقية ٠٠ فالى أى مدى أفاد العلماء الغرب من مبتدعات العرب الرياضية حتى استطاعوا بالدأب على الدرس والعمل المجهد الى اطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية ؟ ٠٠

لقد ابتدع جابر بن حيان علم الجبر الذى سمى باسمه ٠ وابتدع الخوارزمى ـ وهو عربى الثقافة والعقلية رغم أصله الفارسى ـ ابتدع اللوغارتم الذى سمى كذلك

باسمه ، اذ كان الأوربيون يعرفون اللوغارتم باسم « الجورتمي » أي الخوارزمي .

ولن تشط بي الحماسة اذا جاريت من يزعمون أن العرب هم الذين ابتدعوا الحساب ، وجزمت بأنهم هم أول من كتبوا الأرقام السهلة الحديثة ، وأدلل على ذلك بأن الكتابة في أوربا كالكتابة الاغريقية تتجه من الشمال الى اليمين ، وكان الطبيعي أن تتجه كتابة الارقام المركبة هناك هذا الاتجاه أيضا ، ولكنها على العكس . تتجه من اليمين الى الشمال ككتابة الارقام العربية سواء بسواء ... ان التاريخ لم يذكر لنا قوما تبحروا في علم الحساب قبل قدماء المصريين الذين لم يبتدعوا قواعده وحسب ، ولكنهم طبقوها أروع تطبيق ، وقد تلقى الاغريق هذا العلم عن أساتذتهم المصريين سواء عن طريق العرب أو الفينيقيين ، وتبحر فيه فيثاغورس وتلاميذه ، وأضافوا اليه من القواعد الجديدة ما زاده قيمة وفاعلية ثم تلقفه العرب ثانية فحولوه الى قوة ديناميكية فعالة في تطوير العلوم بعد أن ابتدعوا الجبر واللوغارتم ...

يجمع مؤرخو الفلسفة الغربية على أن مؤلفات ديكارت هي التي حولت الفكر الأوربي الى الاتجاه الحديث .ولسنا في معرض تفضيل العناصر الجديدة الثورية التي اشتملت عليها أعمال هذا الفيلسوف ، ولكننا سنشير الى حجر الزاوية في التحول الفلسفي الديكارتي ... لقد تبحر هذا الفيلسوف في العلوم الرياضية ، واهتدى

الى فكرة بسيطة كانت لها أخطر النتائج ، لقد خطر له أن يطبق قواعد الجبر على علم الهندسة ــ لا سيما فرعيه النظرى والميكانيكى ــ وعلى مستعصيات علم الحساب ، وقد وصل بذلك الى كشف مغاليق تلك العلوم وتفسير أسرارها ، بل استطاع أن يفلسفها ... ثم يفسر الوجود « فلسفيا » على ضوئها ... ومن ثم أقام صرح فسلفته التى تفسر الوجود تفسيرا ميكانيكيا . وهكذا نرى أن الفلسفة الغربية مدينة بتطورها الحديث للعرب .

يؤكد مؤرخو الغرب أن فلسفة ديكارت كانت نقطة انتقال الفكر الاوربى من عهد محاكاة الاغريق الى عهد الأصالة والانطلاق ، ولكن أحدا من أولئك المؤرخين لم يذكر لنا فضل العرب على ديكارت ، أو مدى افادته من علومهم التى نقرر نحن هنا انها هى التى فتقت ذهنه ومكنته من اقامة صرح فلسفته .

بيد أن أثر الفكر العربى ظهر فى أوربا حتى قبل ديكارت الذى عكس هذا الأثر بجلاء فى فلسفته .ولسنا نشك فى أن كوبرنيكس وجاليليو قد أفادا من بحوث العرب فى علم الفلك الذى تلقياه أيضا من المصريين عن طريق الاغريق . واذا كابر فى ذلك مكابر فانه لا يستطيع أن ينكر أن هذين العالمين اللذين غيرا معتقدات العالم عن الكون قد استعانا بالجبر على حل ما اعترض دراساتهما من تعقيدات رياضية ... كذلك توصل « نيوتن » به وباللوغارتم الى كشف القوانين الطبيعية

التي لا نظن قارئا يجهل ما كان لها من قيمة فيتطوير العلوم الرياضية والطبيعية ·

ومن أثر النتائج الباهرة التي أسفرت عنها تلك الكشوف العلمية المعتمدة على الرياضية ، أن آمن الأوربيون بالعلم ، ثم آمنوا بالعقل البشرى الذى ابتـــدع العلم ، واستطاع به أن يطور الحياة بنفسه ، بدل الاتكال على الطبيعة في تطويرها ، وأن يقضى على خرافة القدرية ، ويمكن النــاس من الثقــة الكاملة بأنفســهم ، تلك الثقة التى ما كان للحضارة الراهنة أن تتوفر الا بتوفرها وهذا ما حمل الفيلسوف الألماني « كانت » على القول بأنالرياضة هى العلم اليقيني الوحيد ، أما باقى العلوم فتفكر فيها العقول ، وتختلف فى تقدير نتائجها ·

ويستطيع المرء أن يستخلص مما تقدم أن فضــــل العرب على الأوربيين لم يقتصر على امدادهم بمفاتيح علومه الحديثة فحسب ' ولكن تعدى ذلك الى تنقية عقولهم من رواسب المعتقدات الخرافية القديمة ، وحملهم على الايمان بالعلم ، والايمان بقدرتهم على التحكم فى مصائرهم ·

ومن أهم ما حفز التقدم الأوربى الى الأمام ، كشف القارة الامريكية ··· ثم كشف رأس الرجاء الصــــالح والوصول عن طريقهالى جزر الهند الشرقية · ان هذه الكشوف لم تمد أوربا بأسباب الازدهار المادى فحسب . ذلك الازدهــار الذى رفع مستوى معيشتها . وهيأ لهـــا أنسب الظروف للتقدم الفكرى والأخلاقى والفنى ، ولكنها

أشعلت الخيال ، وزادت من الثقه بالنفس ، والايمان بالعلم ... وهل ينكر أحد أنها لم تكن لتتاح لولا «البوصلة» وهي اختراع عربي ؛ ولولا أصول علم الملاحة التي تعلمها الأوربيون من العرب ، ولولا الملاحون العرب الذين أرشدوا « فاسكودى جاما » الى الطريق البحرى الموصل الى جزر الهند الشرقية ، بعد أن كان قد توقف حائرا فى رأس الرجاء الصالح لا يعرف فى أى اتجاه يسير ؟ .. وهل من قبيل المصادفات أن يكون « خرستوف كولومبس » أصلا من أسبانيا ، « وفاسكودى جاما » من الجزيرة الأندلسية؟ وأن تزدهر الملاحة في أسبانيا الأندلسية حتى تصبح هذه الدولة أكبر دول الملاحة فى العالم .

ولا يخال أحد أني أقصد مما تقدم أن أنكر اسهام الأوربيين فى اقامة صرح الحضارة الراهنة أو أن أزعم أن هذا الصرح لم يكن ليتاح له أن يقام لولا العرب ، بل لم يكن ليتاح اطلاق الأقمار الصناعية لولا جابر بن حيان والخوارزمى ... لا ، ليس هذا هو قصدى ... فلو ان العرب لم يحققوا ما حققوه لما عجز غيرهم عن تحقيقه على مر الحقب. ولكني أقصد أن أقرر حقيقة ينكرها الغرب اليوم .. أقصد أن أنوه بالقسط الذى أسهم به العرب فى اقامة أساس الحضارة الراهنة ... ان العقل البشرى قمين أن يبتدع علمى الجبر واللوغارتم فى أى زمان تتوفر فيه الظروف المعينة على ابتداعهما .. ولو لم يهتد اليهما العالمان العربيان لاهتدى اليهما غيرهما .وكل

ما نهدين العالمين من فضل هو سبق غيرهما الى كشف ما كشفاه ... أما فضل الذين استخلصوا النتائج الكبرى من كشوف العرب العلمية ، فمن الشطط أن ينكره منكر

وأقصد كذلك من هذا التنويه بفضل العرب أن أرد لشعوب الشرق ـ دون زهو وغرور ـ ثقتهم بأنفسهم ، وأن أحفزهم للعود من جديد الى الاسهام في بناء الحضارة العالمية بعزم وكفاءة جديرين بالسلف . وأن أظهر للرجل الأبيض المستعمز الذى يريد أن يحتكر فضل تشييد الحضارة الحديثة أن أسلافه تلقوا أهم أصول العلم والتهذيب الراهنين من الأقوام الذين يحتقرهم اليوم .

ان الدور الذى لعبه العرب فى تاريخ الحضارة هو أنهم وضعوا أوربا التى كانت تعيش على فتات علوم الاغريق ... فى أول طريق التقدم الحضارى الحديث ، وزودوها بأدوات النجاح في الوصول الى الغايات الحضارية .. أما هى فكان لها فضل التوفيق فى تحقيق تلك الغايات .

واذا وجد بعض المتشيعين للفكر الأوربى شبهة التعصب فيما قلت ، فما رأيهم فى علماء أوربيين ذهبوا في الاشادة بفضل العرب على الحضارة الى أبعد مما ذهبت اليه . اذ لم يكتفوا بذكر الدور الخطير الذى لعبه العرب فى اقامة الصرح لم يكن ليقام لولا اسهام العرب فى تشييده ـ ومن أمثلة ذلك ما قرره الأديب المؤرخ الفرنسى

« روبير بريفو » فى كتابه « الشعراء التروبادور » صفحة ٢٠ : « كانت أوربا فى القرن الحادى عشر ، والقــرن الثانى عشر ، تتجه الى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم ··· ومن فنون خاصة بالملاحة كانت السبب فى تطورها وتبدل حالها ··· كانت أوربا تتجه اليهم منقبة عن كشوفهم فى علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار « أرسطو » وابن سيناء ، وابن رشد · وكان علماؤنا من أمثال « دانيال دى موربى » و « ميشيل سكوتوس » و « دى جريمون » و « دوريلاك » و « وريمون لول » يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم · ووجد « ريجيومو نتانوس » عندهم المعارف التى مكنت « هنرى الملاح » و « فاسكودى جاما » و « خرستوف كولومبوس » من ارتياد المحيطات ، والوصول الى أطراف العالم · وعثر «أديلهارد دى باث » فى قرطبة على النسخة الوحيدة فى العالم من مخطوط « أوسليد » الذى ظل يلقن للطلبة فى مدارس أوربا حتى عام ١٥٣٣ · وطاف كل من « أفلاطون لوبيزون» و « فيبروناتشى » فى أرجاء أسبانيا ، ليتزودا من علوم الرياضة لا سيما الجبر والتقويم واللوغارتم ·· بل ان الكنيسة نفسها التجأت الى العرب لتجد عندهم ما يعينها على اقامة صرح الفكر المدرسى ·· وبحث كل من « ألبير الأكبر » و « توماس ألين» عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها فى بلنسية ، وعند الفارابى ··· وفى الوقت الذى

أنشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة أسبانيا العربية صرح « روجر بيكون » فى أوكسفورد بأن وجود الفكر الأوربى ، والعلم الأوربى ، كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية ·

لقد دعيت أوربا فجأة الى الحياة بعد أن ظلت غارقة فى ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهى مدينة بكل مقوماتها الى العالم الاسلامى ··· »

وتملك هذا الكاتب الضيق بتعصب قومه فصاح قائلا فى الصفحة نفسها من الكتاب عينه : « ألا يجدر بنا أن نكون أكثر وعيا واستنارة فنتخذ موقفا جديدا من العرب غير موقفنا الذى دفعتنا اليه الافكار التى ظل الأكاديميون يرددونها وقتا طويلا وهى ليست فى الواقع الا وليدة التباسات قديمة ، وأوهام تاريخية أغمض أصحابها أعينهم عن الاسلام ، رافضين أن يقفوا على حقيقة علومه ومعارفه ، مستنكفين أن يعترفوا بفضله على المسيحية التى اتخذت الصبغة البربرية فى أوربا » ·

وجاء فى كتاب « تاريخ المسلمين فى أسبانيا » للمؤرخ دوزى (ص ٣١ من المجلد الثالث) « لم يكن أمراء أسبانيا قبل استعادة بلادهم من العرب ، أقل همجية ووحشية من سادة البرانس المسيحيين ··· بل لم يكونوا يعرفون الكتابة والقراءة ، أو التعامل بالنقد · وكان من يريد منهم أن يجمع بعض الأرقام أو يطرحها ، أو أن يقيس حدود

أرضه من الأراضي ... لا يجد بدأ من الاستعانة بعربي كي يحقق له ذلك » .

هكذا كان حال سراة القوم في اسبانيا قبل اتصالهم بالعرب ومن المعلوم أن هؤلاء الاسبان كانوا أقل خشونة ووحشية من أمراء شمال أوربا ، وأسرة قومها . ولم تتغير حال هؤلاء وهؤلاء الا بعد زحف الحضـــارة العربية الى بلادهم . ونحن لن نواصل الاستشهاد بأقوال الغربيين على صحة هذا القول ، ولكننا سندع الوقائع تتحدث عن نفسها في الفصول التالية من هذا الكتاب .

صفات العرب الحضارية

لا ينفرد المتعصبون من مؤرخي الغرب بقولهم ان الحضارة الغربية وليدة الحضارة الاغريقية فحسب ، وان فجر عهد احياء العلوم بزغ على أثر نشر التراث الاغريقى العلمى والأدبى فى أرجاء دول الغرب .. نعم ، لا ينفرد أولئك المتعصبون بترويج هذه الأكذوبة ، ولكن بعض كتابنا نحن العرب ينافسهم فى ترويجها بغير وعى ، وغير معرفة ، ويدونها حتى فى كتب المدارس دون أن يشير بكلمة الى فضل العرب ، وفضل قدماء المصريين على الحضارة الأوربية الحديثة . بيد أننا نكرر القول : بأن الغرب لم يحتذ الثقافة العربية احتذاء ، ولم يبن حضارته عليها وحدها دون أن يضيف اليها جديدا ، ولم يقصر فى تطويرها والوصول بها الى المستوى الشاهق الذى بلغته ، ولكن الذى لا يجوز أن نغفل عنه ، ولا تعوزنا اقامة الأدلة على صحته ، هو أن حضارة الغرب

لم تستمد عناصر وجودها وازدهارها من حضارة الاغريق فحسب ، ولكن من حضارة العرب أيضا وكانت هـذه الحضارة الأخيرة هى التى دفعتها الدفعة القوية الى الأمام وهى التى حررت الأمم الغربية من رواسب الوثنيةالاغريقية وأبدلت بمعتقدات العصر القديم ومثله وأفكاره وتقاليده معتقدات وأفكارا ومثلا وتقاليد جديدة أمدت دوحةالحضارة الغربية بأهم أسباب ايناعها واثمارها ، وفتحت لها طريقا جديدا للتقدم ، وأوصلتهـا بذلك الى نقطة الانطلاق الى الآفاق الجديدة ٠

وباستثناء من أشرنا اليهم فيما سبق من علماءالغرب الشرفاء الذين يضطلعون اليوم فى أمانة واخلاص بالتنقيب عما كان للعرب من تأثير فى تطور الحضارة الغربية ،فاننا نجد زملاء لهم يطرقون نفس الموضوع ولكن كراهيتهـم للعرب تحملهم على القول : بأن فضل هؤلاء على الحضارة الغربية ينحصر فى المحافظة على بعض تراث الاغريقالفكرى ونقله الى أوربا ٠٠٠ بيد أن واحدا من أولئك المفكرين توسط الطريق ، وهو المؤرخ الانجليزى « توينبى » ، وقرر أن الدور الذى لعبه العرب فى هذا الصدد كان ايجابيا لا سلبيا ٠ فهم لم ينقلو الفكر الاغريقى الى أوربا دون أن يمسوه ، ولكنهم شرحوه شرحا جلا غوامضـه ، وعلقوا عليه تعليقا أقال عثراته وأكمـل نواحى النقص والتقصير فيه ٠

ولكن الذى أغفله توينبى وغيره من زملائه المؤمنين

بتفرد الرجل الأبيض الغربى ، هو أن فضل العرب على ذلك الرجل المتغطرس لا يقتصر على نقل التراث الاغريقى الى أوربا مشروحا أو غير مشروح ، ولكن يتعدى ذلك الى الجوهر الذى أقر به المنصفون من الغربيين ، وهـــو أن أوربا مدينة بحضارتها للعرب ·· والفيصـــل بين الحق والباطل في هذا الموضوع هو مناقشته واقعيا · فمثـــل هذه المناقشة هى الكفيلة باحقاق الحق وازهاق الباطل ·

ان أهم ما يلفت نظر الباحث فى تاريخ أوربا خـــلال العصر الوسيط هو عجز المسيحية عن تحرير الفكر الأوربى من ربقة الفكر الاغريقى فى بحر الشطر الأكبر من ذلك العصر ·· فبرغم اعتناق الأوربيين للمسيحية ، وايمانهم بمثلها الفكرية والأخلاقية ، فقد ظلت الفلسفة الاغريقية مسيطرة على اتجاهاتهم الفكرية ، واحتفظت باستقلالها عن دينهم ·· ألم يكن رجال الكنيسة يســـتعينون حينذاك بأفلاطون وأرسطو فى تفسير أمور الدنيا ، ويضـــعون فلسفتهما ، كما يضعون معتقدات الدين المسيحى ، فوق كل مناقشة ؟ ـ ان هذه الخطة لم تعجز المسيحية عن أداء رسالتها فحسب ، لكنها سخرتها فى طمس الفكر الأوربى الناشىء ، أو تعطيل تطوره ·

لقد عطل رجال الدين ملكة التفكير عند الأوربيين ، وكبلوا عقولهم بالنصـــوص الفلسفية وعقائد الدين ، وحظروا عليهم البحث عن أى حل لأية مشكلة الا من بين ثنايا تلك النصوص والمعتقدات · وقد يظن القس

الفيلسوف سانت أوجوستان (٣٥٣ ـ ٤٣٠ م) الى عمق التناقض القائم بين المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، فبدلا من أن يناقش هذا التناقض ، وينقب عن الحقيقة ، جنح الى المهادنة ، وحاول أن يعالج ذلك التناقض فى كتابه « مدينة الله » بالتوفيق بين تلك المذاهب المتناقضة ... لقد حاول فى ذلك الكتاب ؛ وفى كتاب آخر له دعاه « الاعترافات » أن يوفق بين الأفلاطونية والعقيدة المسيحية .. وكذلك بين العقل والايمان .

ولكن شأن العرب فى هذا كان غير شأن الأوربيين فقد درس مفكروهم ـ كما قلنا ـ فلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الاغريق ، وامتحنوا المشكلات العقلية التى أثاروها ، والأسئلة الحائرة التى طرحوها دون أن يوفقوا الى اجابة عليها تشفى الغليل ، ثم نظروا الى دينهم أى الى الدين الاسلامى ، وامتحنوا موقفه من تلك المشكلات ونظرته اليها ، ووسيلته الى حلها ، وراحوا يناقشون ذلك كله مناقشة جريئة حرة تعرضت فى بعض الاحيان لموضوعات دقيقة كان طرقها محظورا .. فقد تساءلوا مثلا عن أزلية الصفات الالهية وأزلية القرآن ، وحرية ارادة الانسان وما يترتب على التسليم بهذه الحرية من تناقض مع بعض الأصول الدينية .. ولن أطيل فى هذا . انما يكفى أن أقرر هنا أن العرب هم أول من ناقشوا المسائل الدينية مناقشة حرة ، وقد عرفت بحوثهم فى هذا الشأن باسم « علم الكلام » وعرف أئمة هذا العلم باسم « المتكلمين »

ـ وما انتقلت مؤلفات أفلاطون وأرسطو من أيدي العرب الى الأوربيين مشفوعة بتعليقات « المتكلمين » حتى أحدثت تلك التعليقات أثرها في عقول مفكري أوربا الذين كانوا قد أخذوا يفيقون من سباتهم ويضيقون بالأغلال التي كبل بها رجال الدين فكرهم .. ولم يلبثوا أن تشجعوا وراحوا يحذون حذو « المتكلمين » في مناقشة مسائل الدين ، وتدبيج المصنفات في ذلك .

وقد يسأل سائل : وما أثر ذلك في نشأة الحضارة الغربية وازدهارها ؟ .. ليست عصور الظلام الا العصور التي تفرض فيها معتقدات معينة على الفكر ، وتحظر عليه مناقشتها ، فالفكر في هذه الحالة يتعطل ، ثم يأسن ويتعفن . أما أهم ما يميز عصور الازدهار فهو حرية الفكر .. حرية مناقشة جميع المشكلات التي تهم الانسان وتشغل باله ، فمن احتكاك المناقشة الحرة ينبثق النور الذي يجلو الحقائق ، أو يجلو جانبا منها .. أو يشحذ الفكر ، على أقل تقدير ، وينميه .. وبذلك تتحرك عجلة التطور الحضاري ، ثم تسرع في خطاها .

وبانتشار مصنفات « المتكلمين » في غرب أوربا اشتعلت شرارة الثورة الفكرية على رجال الدين استبدوا بالفكر الأوربي ، وشلوا حركته ردحا من الزمن . وقد استفحلت تلك الثورة ، وحطمت معاقل استغلال الفكر ، وما زالت تواصل انتصارها حتى استطاعت أن تحقق مبدأ فصل العلم عن الدين .. هذا المبدأ الذي مكن العلم

الأوربى من تبوؤ المكانة التى وصل اليها اليوم ، ومن الاسهام بأوفى نصيب فى بناء الحضارة الراهنة • ومما مكن علماء الغرب وحكماءه وأدباءه من الارتفاع بالعلوم والبحوث الفكرية والأدبية الى المستوى الحضارى الذى وصلت اليه ، ما تميزت به مؤلفاتهم من تدقيق فى التحقيق العلمى ، ومن تطرق التحليل الى الأغوار والأطراف • وكل من يطلع على تحقيقات المتكلمين العرب الفلسفية ، وعلى بحوث العرب العلمية يجد فيها المصدر الذى نبعت منه تلك الدقة الأوربية العلمية التى لم تظهر الا بعد انتقال المؤلفات العربية الى أوربا •• واذا جادل المجادلون فى هذا ـ فما قولهم فى التاريخ العربى ؟ •• كان مؤرخو الاغريق يدونون فى مؤلفاتهم كل ما يصل الى آذانهم من حكايات وروايات دون أن يستوثقوا من صحة مصادرها ولكن مؤرخى العرب جاءوا بعد ذلك فتحروا الدقة العلمية فى تحقيق الوقائع التاريخية التى يمتحنونها ، واستخلاص صحيحها من زائفها ، فعلموا مؤرخى أوربا الذين كانوا متأثرين بمؤرخى الاغريق أهمية الصدق التاريخى ، وكيف يكون البحث فى سبيل استخلاصه •• واذا كان بعض النقاد يأخذ على الأدب العربى قصوره فى تحليل الخوالج البشرية ، والمشكلات الأدبية ، وفى التغلغل الى تفصيلاتها ـ فمرجع ذلك الى فهم العرب الخاطىء للبلاغة ، اذ ظنوا أنها لا تتحقق الا بايجاز ، أو بتطبيق قاعدة « ما قل ودل »

بيد أن أدب الغرب لم يتأثر بهذه القاعدة فاستطاع أن يفيد من افاضة العرب في بحوثهم الفكرية ...

يتضح مما قدمناه بايجاز أن العرب تميزوا بصفات صبغت مؤلفاتهم العلمية والادبية بصبغتها ، وسمت بها الى مستوى أسمى من مستوى سابقاتها ؛ بل نقلتها الى عتبات مرحلة جديدة مهدت لبزوغ الحضارة الاوربية ، لقد شقت هذه المؤلفات طريق البحث العلمى الحر الذى كان له الفضل الكبير فى قيادة أوربا الى آفاق حضارتها الحديثة .. هذه الصفات هي التحرر من الخرافات والاوهام والنظر الى الأمور نظرة واقعية ، ومحاولة فهمها على حقيقتها بتمحيصها وتقليبها على جميع وجوهها ، والبحث عن مصادرها . ومن أهم تلك الصفات هى التى تلقنها علماء الغرب وأدباؤه عن العرب ، وتأثروا بها فاطرحوا خرافاتهم القديمة ، واتبعوا فى تأليفهم العلمى ما اتبعه العرب من استقراء وتمحيص واستدلال واستنباط ... وفى تأليفهم الادبى من وصف صادق للواقع ، وتنقيب عن دقائقه ، وتحليل دقيق لنقائضه .

* * *

وبرغم أن العرب فى الجاهلية ، وفى مطلع الاسلام ؛ كانوا لا يزالون يعيشون فى ظل النظام القبلى ، فقد تحلوا حينذاك بصفات مدنية لم يتحل بمثلها أقوام تخطوا المرحلة

القبلية .. كانوا يتحلون بالنخوة والدماثة واللطف ورقة الحاشية والايثار والمروءة والنجدة والعفو عند المقدرة ،الى آخر تلك الصفات التى يحـاول الرجل المتحضر اليوم أن يتصف بها ، ويحسب أنها **ثمرة الحضارة الأوروبيـة** الحديثة ، وآية من آياتها .

ومن صفات العرب القدامى أيضا عشق الجمال فى المرأة ، وفى غيرها من ظواهر الحياة ، بل تقديس الجمال وتنزيهه ، وقد ترتب على ذلك أن أعـز العـربى المـرأة وكرمهـا وأعلى قدرها فمكنها من أن تشـعر بكرامتها ؛ وتستمتع بحريتها ؛ وتغترف من الثقافة لتزداد قدرا ، وتلعب دورها الحاسم فى بناء صرح الحضارة .

ولعشق الجمال هذا فضل أكبر فى تخليص العربى من فظاظة الهمجية ، ولوثة الجاهلية ، وفى حفزه الى انتاج الآيات الجمالية فى أدبه ، وفيما يحيط به نفسه من مظاهر المدنية والعمران .

ولا يتسع المجـــال فى هـذا الكتيب للاستشهاد بالنصوص على صحة ما ذكرنا .. ومن يود التحقق بنفسه من تلك الصـــحة عليه أن يقرأ شــعر العرب وأنباءهم وحكاياتهم وقصصهم ...

وقد نقلنا فى آخر الفصل السابق وصف دوزى لهمجية أمراء أسبانيا والبرانس قبل اتصالهم بالعرب ..

ونحن نتم الآن قول دوزى فى هذا الصدد (المرجع نفسه)
« لم يكد أمراء أسبانيا يسترجعون بلادهم من العرب حتى أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الأبهة والفخامة العربية . وأصبح بلاط قشطالة مجتمعا للشعراء كسوق عكاظ » .

هذه هى الصفات التى سمت بالعرب ، قبل غيرهم ؛ ونقلتهم من المرحلة شبه الهمجية ، أو المرحلة غير المهذبة الى مرحلة التهذب الحضاى ، وسنتكفل فى فصل تال ببحث العوامل التى غرست فى العرب تلك الصفات قبل غيرهم من الأمم .

المرأة العربية والحضارة

تنظر المرأة الأوربية اليوم الى المرأة العربية نظرة ازدراء ، فهى تتصورها أمة تعيش حبيسة بين جدران البيوت مع زميلاتها الحريم لتبهج الرجل ،وتحظيه وتقوم على خدمته • (« بييرديه » فى كتابه « القصة عبر سبعة قرون ») •

وقد فضلت المرأة الأوربية التى تخال أنها بلغت ذروة التحضر ، وانفردت به •• غفلت عن حقيقة لو فطنت اليها لنهنهت من كبريائها ، فهى لم تبتدع مقومات تحضرها ، ولكنها ورثتها عن المرأة العربية •

ولست أحسب أن قارئا عربيا يجهل اليوم ما كان للمرأة العربية ، منذ الجاهلية ، من مكانة مرموقة بين قومها ، مستمدة مما كانت تتحلى به من رجاحة عقل ،

وسعة علم ، ومتانة خلق ، ولكننا سنلمع مع ذلك الى شيء مما قاله بعض مؤرخي الغرب عنها ، لعل ذلك يقنع المنكرين ...

ورد فى كتاب « المعلقات السبع الذهبية » صفحة ١٤ للأخوين « آن وويلفرد بلنت » ما يلي : « كانت خيام العرب ، حتى فى الجاهلية ، تضم سيدات أديبات مثقفات ينظمن الشعر ، ويجلسن فى مقعد التحكيم بين فحول الشعراء » .

وجاء في كتاب « الشعراء التروبادور » للمؤرخ المنصف « روبير بريفو » ما يأتي :

« ليس هناك خطأ أفضح من الظن بأن العرب لم يعرفوا من الحب الا لونه الجنسي الشهواني .. ومما يؤسف له ان هذا الخطأ شائع بيننا .. ان الحب المثالى المبنى على تقديس المرأة من أهم تقاليد العرب الموروثة عن الجدود الاقدمين ؛ بل ان التعلق الحماسى بالقبيلة غرس فى نفس العربى تقاليد الفروسية التى سمت به عن الدنايا وبثت فيه الاخلاص للمرأة ، وحملته على احترامها ، وقد انعكست هذه المشاعر فى الشعر العربى التقليدى .. »

وتطور الحب العذرى حتى تمخض عن « العشق الالهى » . ومن ثم نشأت الصوفية التى نزهت المشاعر الانسانية عن كل ابتذال ، ورأت في الحب منبعا للايمان

والخير والنبل ، بل منبعا للفضائل والمعارف أجمع • وقد قال « جيبون » فى هذا الصدد : ان الصوفيه لا ترى العشق غاية فى ذاته ، ولكنها تراه الوسيلة المؤدية الى المعرفة •• » •

ولن نتوسع فى شرح ما تقدم ؛ فان ما ذكرناه يكفى للدلالة على ما نرمى اليه • فالمستوى السامى الذى ارتفعت اليه مشاعر العرب العفيفة الطاهرة يعيننا على تصـــور التقدير الذى حظيت به المرأة العربية • ويفسر ما احيطت به من تكريم وتبجيل أعاناها على احترام نفسها ، والاستزادة من أسباب تقدير الناس لها ، كما يدحض الرأى الاوربى العام فيها •

فعن العرب تعلم الاوربى كيف يعز المرأة ، ويستوحى من جمالها أسمى التصورات ، ويستسلم لأنبل المشاعر ، بعد أن كان لا يعرف من ألوان الحب الا ذلك اللون الجسدى الذى ورثه عن الهمجيه الاولى ، وتلقن فنونه عن الاغريق ولو ألمت المرأة الأوربية بالحقيقة لأدركت أنها مدينة بالحرية التى نعمت بها ، والمكانة التى سمت اليها للمرأة العربية ، بل لعلمت أنها مدينة لها بأكثر مما تقدم ، فالمرأة العربية لم توفر لها ما ذكرناه فحسب ولكنها أمدتها كذلك بفنون الأناقة والرشاقة والدماثة التى جعلت منها امرأة متحضرة بحق • وفيما يلى طرف من أفضال المرأة العربية عليها •

كانت المرأة فى الجزيرة العربية ترفل فى الدمقس والحرير ، على حين كانت الأوربية ترتدى الملابس الكتانية الخشنة ... قال الشاعر الجاهلى «المنخل اليشكرى» :

الكاعب الحسناء تر

فل فى الدمقس وفى الحرير ...

وقال عمر بن أبى ربيعة بعد ذلك :

وقامت اليهما حرتان عليهما

كساآن من خز دمقس وأخضر

وكانت المرأة العربية تتجمل بالأردية الشفافة :

وليس عباءة وتقرعينى

أحب الى من لبس « الشفوف»

وكانت المرأة العربية تتحايل لتزداد جمالا ،كانت تتأنق فى مشيتها كما تفعل المرأة الأوروبية اليوم لتنال الحسن بالحيلة ، بعد أن كانت خشنة الحركة ، غثة الايماءة ، شوهاء الخطوة ... قال المنخل اليشكرى يصف مشية المرأة فى الجاهلية :

ودفعتها فتدافعت

مشى القطاة الى الغدير

وقال المتنبى بعد ذلك :

تشبه الخفرات الآنسات بها
في مشيها،فينلن الحسن بالحيل

وقال آخر :

هيفاء ميساء مصقول عراقبها
تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوجل

واللغة العربية تنفرد بين لغات العالم باطلاق أسماء مختلفة على المشى الرشيق الأنيق ، فأنت لا تجد غير كلمة واحدة تعبر بها كل لغة عن حركة المشى ، سواء أكانت التى تمشى امرأة أم رجلا ، أما العربى فيصف المرأة حين تمشى بقوله : « تتثنى » و « تتأود » و « تتبختر » و «ترفل» وغير ذلك من الكلمات التى تصور تأنق العربية فىمشيتها وتنطق بمـا كان لذلك من أهمية انعكست فى اللغـة نفسها .

كانت المرأة العربية تتجمل بأصباغ الوجه ،وتبذل جهدها لتضفى على نطقها عذوبة وطلاوة .. قال المتنبى منكرا التحضر ، ومؤثرا عليه البداوة ، بيد أن انكاره يثبت وجود ما ينكره :

نفسى فداء ظباء ما عرفن بهـا
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية

وفى البداوة حســن غير مجلوب

وكانت تجيد التحدث .. قال كثير :

مخضــبة الأطراف ود جليسهــا

اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

وقال آخر :

رهبان مـــدين والذين أراهمــو

يبكون من خوف العــذاب هجــودا

لو يسمعون كما سمعت حديثها

خروا لعزة ركعـــا وســجودا

ولها ذوق رفيع فى التزين .. قال كثير أيضا :

مخصرة الأوســاط زانت عقودها

بأحسن ممــا زينتها عقودها

وهى لم تكن مجرد سلعة يفوز بها الرجل القوى ، أو الزوج الموسر ، ولكنها كانت تلعب بقلوب الرجال .

يمنيننــا حتى ترف قلوبنــا

رفيف الخزامى بات طل يجودها

كانت تصمى قلوب الرجال بنظراتها الساحرة ..
قال الشاعر :

رمتنى بلحظ لو كميا رمت بـه
لبـــل نجيعــا نحــره ونبائقه

وكان العربى يتهدج لنظرات العيون العربيةالساحرة ويقدرها حق قدرها :

أليس قليلا نظــرة ان نظرتهـا
الى .. وكلا ليس منك قليــل

وقال عمر بن أبى ربيعة :

وترنو بعينيهــا الى كمــا رنا
الى ربرب وسط الخميلة جؤذر

ونظرة الغادة العربية تسيل الدموع لفرط عذوبتها

ومما شــجانى أنها يوم أعرضت
تولت وماء العين فى الجفن حائر

فلما أعادت من بعيــد بنظـرة
الى التفاتا أســـلمته المحاجر

والعربية الحسناء تأسر القلوب باشارتها اللطيفة ، وايماءتها الرقيقة :

وماذا عليها لو أشارت فسلمت

علينا بأطراف البنـــان وأومت

والشاعر يتحسر حين تبخل عليه بمثل تلك الاشارة:

منعت تحيتهـــا فقلت لصـــاحبى

ما كان أكثرها لنا وأقلها

والفتاة العربية الأنيقة تعنى حتى بتصفيف شعرها: وكسر الشعر واوات ورجله ...

وكانت المرأة الأوربية تحجم عن الاستحمام ، متخذة من قذارة الجســد دليــلا على طهارة النفس والزهد فى الرجال ، على حين كانت المرأة العربية تصون جمالها عن ان تلوثه القــذارة ، وتعلم حــق العــلم الا علاقة بين العفة والاتساخ ... كانت تحرص على الابتراد كلما أتيح لها ذلك . قال المتنبى :

... ولا خرجن من الحمام ماثلة

أوراكهن صقيلات العراقيب

وقال آخــر :

ولقــد قالت لجــارات لها

وتعــرت ذات يوم تبترد

أكـــما ينعتنى تبصرننى

عمـــركن الله أم لا يقتصـــــد ؟

وامتازت المرأة العربية بدقة خصرها ، وامتلاء صدرها وعجزها وأفاض الشعراء العرب فى وصف ذلك. ومما قيل فى ذلك :

ابت الروادف والشـدى لقمصـها

مس البطـون وان تمس ظهـورا

واذا الرياح مـع العشى تناوحت

نبهن حاســدة وهجـــن غيـورا

وقيل أيضا :

بيضاء باكرها النعيم فصـــاغها

بلبـــاقة فأدقها واجلها

ومن ذلك البيت المشهور :

هيفـاء مقبـــلة عجـــزاء مدبرة

ما عابهـــا قصر يومـــا ولا طول

وقد ترامى صيت قوام المرأة العربية اللدن المتأود الى المرأة الأوربية فبذلت جهدها للتشبه به ، ولبست

لذلك المشد الذى يضغط خصرها ، ويبرز صدرها ·
ووضعت تحت زنارها قفصا عريضا من السلك لينفش
رداءها الأسفل (لم تقلع عن لبس هذا القفص الا فى
أواخر القرن الثامن عشر) ·

وحاكت المرأة العربية حتى فى لبس الخمار أو
النقاب · فالأوربية الأنيقة لا تزال تضع الى اليوم نقابا
شفافا ينسدل من قبعتها الى ما يحازى طرف أنفها ···

ولم يبق علينا الآن الا أن نعرف : أتم توافق هذه
القيم الحضارية بين المرأتين العربية والأوربية مصادفة ؟
أم عن طريق توافق الخواطر ؟ أم تم محاكاة متعمدة ؟··

ان الدولة الاسبانية التى قامت فى بلاد الأندلس
بعد انحسار العرب عنها ورثت الحضارة العربية ــ أو
بعبارة أدق ، ورثت الحضارة الأندلسية المتولدة من
امتزاج الحضارتين العربية والاسبانية الرومانية القديمة··
بيد أن الجدير بالتنويه هو أن الطابع العربى كان الغالب
على هذا المزيج الحضارى ·

صعدت هذه الدولة الاسبانية حثيثا فى سلم التقدم
بعد كشوفاتها الجغرافية ، وامتلأت خزائنها بالذهب
الأمريكى ، وتضخمت قوتها العسكرية ، واشتد سلطانها ،
فجذبت بذلك أنظار الدول الأوربية الغربية ، وبهرتها
بمقومات حضارتها ، فحاول سادة هذه الدول ــ وكانوا

وقتذاك متعطشين الى المزيد من أسباب الأبهة والجاه ــ ان يحيطوا أنفسهم بمثل مظاهر عزها وترفها ، ويقتبسوا أساليب حياتها الحضارية ، ولما أعوزهم المال رأوا أن يغترفوه من المورد الذى تغترفه منه ، فتتبعوا خطاها فى البحث عن مستكشفات جغرافية جديدة ، واحتاج ذلك الى توسع فى الانتاج الصناعى لبناء سفن الكشف والفتح والغزو ، ولتجييش الجيوش وتزويدهم بالملبس والعتاد . فنمت بذلك طبقة التجار ، ورؤساء الحرف الصناعية ، وكثر بالتبعية عدد الأطباء والمحامين والمهندسين والمشتغلين بالفنون والآداب ، وتهيأت بوجود تلك الطبقة النامية ــ ظروف ملائمة لزيادة ازدهار الثقافة الانسانية الجديدة الوافدة من اسبانيا .

كان ملوك أوروبا وأمراؤها يسكنون القلاع الغليظة الجدران ؛ المكفهرة الحيطان ويحيطونها بخنادق عميقة كثيرا ما كانوا يطلقون الماء فى قاعها ، ليعوقوا هجوم الأعداء فيتعطن ذلك الماء الآسن ، ويزكم عطنه الأنوف . ولم يعرفوا من أنواع الرياش الا أن يكسوا غرف قلاعهم وردهاتها بمختلف أنواع الدروع والسيوف والرماح ، والا أن يقيموا فى أركانها أردية الزرد .. وفى هذه الأثناء كان أمراء العرب فى الأندلس يسكنون قصورا تنطق بسموهم الحضارى ... أقاموها على غرار قصور بغداد فى عهد العباسيين ، وقصور القاهرة فى عهد الطولونيين ، وكانوا يزينون حيطانها من الخارج بالنقوش الملونة البديعة .

ويكسونها من الداخل بأثمن الطنافس المحلاة بالأشـكال المزخرفة الرائعة ، ويملئون غرفها وردهاتها بأفخر الرياش ، وينشئون لها ــ بدل الخنادق ــ حدائق غناء حالية بتماثيل أسـود وفهود تصب أفواهها المـاء فى أحواض أرضـها وجدرانها من الفسيفساء ... وقد حركت قصور العرب هذه فى الشرق والغرب خوالج شعرائهم فوصفوها فى شعر دل على أن نشاط الأدب العربى لم يتخلف عن غـيره من أوجه النشاط الحضارى العربى . وهذا الشعر المعروف يغنينا عن الاسهاب فى وصف تلك القصور وغيرها من الآثار العمرانية العربية .

سكن ملوك أسبانيا وأمراؤها قصور الأندلس العربية بعد أن خلت من أهلها ؛ ولم يلبثوا أن بنوا قصورا جديدة على غرارها . ثم حاكاهم ملوك فرنسا وأمراؤها فى ذلك فسكنوا القصور بعد القلاع والحصون . وسرت العدوى الى انجلترا وألمانيـا وايطاليا وغيرها فتبارى أمـراء تلك البلاد فى بناء أجمل المنازل ، وانشـاء أبهى الحـدائق ، وما زالوا يدخلون على فن البنـاء من المبتدعات المعمـارية والزخرفية ما مكنهم فى النهاية من تشييد قصور التويلرى وبوكنجهام والكريملين وغـيرها من تلك الدور التى تعـد تحفة فنية تنطق بما وصلت اليه الحضـارة الأوربية فى هذا المضمار .

وانتعش العمران ، واتسعت المدن بفضـل الاتساع الصناعى والتجارى اللذين ذكرنا بعض أسبابهما ، وأخـذ

الاهتمام بتحسين السكن يسرى بنسب متفاوتة ، من طبقة الأمراء والأشراف الى الطبقة الجـديدة التى كانت تزداد ثراء وعزة ، والتى قدر لها أن تصبح الطبقة البورجوازية الوارثة لأمراء الاقطاع ٠

وتحقق تقدم مطرد سريع فى هذه الناحية الحضارية الهامة ، وهى ناحية العمران ٠ وسار الى جانب هذا التحسن فى فن البناء تحسين يقابله فى تأثيث المساكن ، وارتفع مستوى الذوق الذى عاد فأثر فى تحسين الأبنية وتجميل أثاثها ، واستمر هذا التحسن دواليك فى مستوى الذوق من ناحية ومستوى جمال البناء وملحقاته من ناحية أخرى ، حتى وصلت مرافق الحياة الحضارية الى ما وصلت اليه من رقى ، وأثر ذلك كله فى الفكر والسلوك ، وتمخض عن القيم الحضارية الحديثة ٠

ويعنينا مما تقدم ان أسبانيا أصبحت أكبر دول أوربا عقب جـلاء العـرب عنها ، ولم تخشـها سائر دول أوربا وقتذاك ، وتخطب ودها فحسب ، ولكنها أخذت تترسـم خطاها فى مضمار الحضارة ، وتحاول محاكاتها ٠ ونشط هذا الترسم ، وهذه المحاكاة فى ميدان الأناقة النسوية ، وتتبعت نساء البلاط فى كل دولة من دول أوربا آخـر مبتكرات تلك الأناقة فى البلاط الاسبانى ، ونقلتها عنهن نقلا ، ثم أخذت هذه المبتكرات ــ وهى فى الواقع تراث المرأة العربية التى استوطنت اسبانيا ــ تتسرب من نساء

قصور الملوك الى نساء الطبقات الراقية ، ثم من هؤلاء الى نساء الطبقات المتوسطة . فمن هذه الطريقة اغترفت نساء أوربا فنون نساء العرب في التجمل والتطرية ، وسرعان ما تحضرن فأسهمن بأكبر قسط في اقامة مسرح الحضارة الأوربية .

وقد وصف كثيرون من مؤرخي الغرب الشمائل والطباع الجديدة التي اتصف بها أمراء الاسبان الذين حلوا محل العرب في اسبانيا بعد اجلائهم عنها ، ونزلوا في قصورهم، ومارسوا الحياة الحضارية التي مارسوها .. ووصف أولئك المؤرخون كذلك تأثر المرأة الأسبانية بالمرأة العربية ، ثم تسربت القيم الحضارية العربية كافة من أسبانيا الى جنوب فرنسا ... ونذكر هنا ما يحضرنا من شواهد على ذلك :

جاء في كتاب (التاريخ المعاصر) للمؤلف الفرنسي القديم « روال جلابييه » ما يلي :

« كان سادة أوربا خشني المظهر ؛ غلاظ القلوب ، جفاة النظرات ، طوال اللحى .. على حين أصبح سادة الجنوب ، بعد اتصالهم بالعرب يتأنقون في ملبسهم ، ويحيطون أنفسهم بمظاهر العز والحضارة » .

وفي الصفحة ٧٤ من كتاب بريفو السالف الذكر ، قال المؤلف يصف مدى تأثر المرأة الفرنسية بالمرأة العربية :

« لقد تغيرت حال سيدات القصور فى الجنوب ، فهن لم يعدن كما كن من قبل ، أميرات ضيقات العقول ، يحيط القساوسة بهن طول النهــار ؛ بل أصبحن يلعبن الدور الأول في محيطهن ، ويتمتعن بتقديس الرجال ••• ولقد أتيحت لهن أسباب الأناقة ، فمن الحرير ومختلف أنواع الأردية والعطور الواردة لهــن من الشرق العــربى ، الى الأصباغ التى لم يتورعن عن التجمل بها ، الى غــير ذلك من أسباب التطرية والأناقة• وقد أشعلن بذلك نار الحسد فى قلوب نساء الشمال » •

تقاليد الفروسية العربية

يقر مؤرخو الحضارة الأوربية بأهمية ما أحدثته تقاليد الفروسية من أثر فى التطور الحضارى الأوربى ، ومن أقدم المؤلفات التى تحدثت فى ذلك كتاب « شجرة المعارك الحربية » الذى وضعه القس الفرنسى « أونوريه بونيه » فى أواخر القرن الرابع عشر . وترجع أهمية هذا الكتاب الى عنايته بتوضيح أثر تقاليد الفروسية فى تطوير قوانين الدول الأوربية وتهذيبها . وقد رأى « لوجوفتيل » أن الوطنية تولدت من تقاليد الفروسية وقد قال ما معناه « ان أسمى عناصر الوطنية وهى روح التضحية والتشوف الى احقاق الحق ، وحماية المظلوم .. نبتت أصلا فى تربة الفروسية » وقال الدكتور « جوهان هويزينجا » فى كتابه « تقلص العصور الوسطى » ما يلى : « ان الأحلام التى تراود الانسان عن حياة أسمى ، لها قيمة ذات أهمية

حقيقية فى تاريخ التطور الحضارى » الى ان قال : « ان الوقوف على هذه الأهمية يتطلب تقدير ما أحدثته معتقدات الفروسية من أثر فى ميادين السياسة والحرب قبيل نهاية العصر الوسيط » ••• وقال فى موضع آخر من كتابه المذكور : « ومعتقدات الفروسية لم تمت مع ذلك دون أن تؤتى ثمارها فقد وضعت منهجا لقواعد الشرف ومدلولات الفضيلة وكان لها أثر ملحوظ فى تطور القوانين ••• ان قوانين الأمم الاجتماعية والحربية نبتت فى مجاهل القدم • ولكن تقاليد الفروسية هى التى نفثت فيها الحيوية والازدهار» ولسنا نحسب أننا فى حاجة – بعد ماتقدم – الى مزيد من الاستشهاد •• ولكن المؤلم ان أغلب مؤرخى الغرب لم يروا أية صلة بين تقاليد الفروسية الأوربية التى أحدثت الأثر الكبير فى تطور أوربا الحضارى ، وبين تقاليد الفروسية العربية فبعضهم يزعم أن الغربيين ورثوا هذه التقاليد عن الاغريق • ويزعم بعضهم انها ثمرة تعاليم المسيحية وما أشد ضلال هؤلاء وهؤلاء !

ان التربة العربية هى التى أنبتت بذور تقاليد الفروسية الأولى ولهذه الحقيقة الواقعية أسباب وعليها أدلة وشواهد فأما الاسباب فسيرد ذكرها فى موضع آخر من هذا الكتاب • وأما الأدلة والشواهد فيتحصل أهمها فيما يلى :

من يستعرض الملاحم الاغريقية التى تسرد سير ابطال اليونان القديمة، وترسم مختلف الصور لمغامراتهم

البطولية يجدها لا تتحدث ، الا عن الشجاعة البدائية الوحشية ، والحب الجسدى الآثر • أما تقاليد الفروسية التى تتحدث عنها فلا يبدو لها فى تلك الملاحم اثر • ومن غير المعقول أن يكون ابطال اليونان القديمة متحلين بها ، ولا ينعكس ذلك فى الاعمال الأدبية المذكورة • وهذا يدحض قول من يزعمون ان تقاليد الفروسية الأوربية التى ازدهرت فى أواخر القرن الوسيط موروثة عن الاغريق •

أما تعاليم المسيحية فتبشر حقا بالرحمة والايثار والتضحية وغير ذلك من العواطف النبيلة • ولكنها تختلف عن تقاليد الفروسية فى ان معتنقها المتشبع بروحها يقف من الملمات موقفا سلبيا مستندا الى التسامح والغفران على حين أن الفارس المتشبع بتقاليد الفروسية العربية يقف من الشدائد موقفا ايجابيا ينصر فيه الحق على الباطل بحد سيفه •• ولو صدق الذين ينسبون تقاليد الفروسية الأوربية الى تعاليم المسيحية لأحدثت تلك التعاليم أثرها منذ القرون الميلادية الأولى ، ولما تأخر ظهورها الى القرن الثانى عشر الميلادى •

وفى قصة الفارس دون كيشوت المشهورة دليل حى على صحة ما نقول فلو اننا أبعدنا عن ذلك الفارس اللوثة التى ألصقها به المؤلف لتحقيق هدفه من قصته — وهو تصوير مخبول يتشبث بأذيال الماضى ، ويحسب أنه يعيش فى زمن ولى واندثر — لوجدنا ان دون كيشوت

يمثل الفارس العربى القديم ، وان تقاليد الفروسية الأوربية التى يعتنقها ويناضل فى سبيلها هى بعينها تقاليد الفروسية العربية . ألم يكن يجابه المكاره ؛ ويتعرض لألوان الأذى باسم حبيبته وفى سبيلها ، لغوث المظلوم ، واحقاق الحق وازهاق الباطل، واجتثاث الشرور من جذورها؟ .. وشعر الحماسة والفخر فى عهد الجاهليين ، وفى مطلع الاسلام يبرز لنا هذه المعانى فى أجلى صورها ؟ .. .. وها هى ذى قصة عنترة العبسى تصور لنا الطور الأول لتقاليد الفروسية العربية ألم يخض ذلك الفارس العربى القديم غمار الحروب باسم حبيبته ، وفى سبيل الدفاع عنها ، وتأديب الطامعين فيها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وحد البيض يقطر من دمى ؟
ووددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ألم يتجشم الأسفار ، ويجوب الامصار ؛ ويتعرض لموارد الهلاك ، كيما يحقق أمنية لحبيبته ، أو يجيب لها طلبا ؟ ..

وهل بيننا من لم يقرأ قصة الحروب الصليبية ولم يعرف موقف العرب وموقف الفرنجة منها ؟ .. لقد اعترف كثيرون من كتاب أوربا المنصفين بما كان من فرق شاسع فى بدء نشوب تلك الحروب بين تقاليد الفروسية

العربية والأوربية ، ثم بما لحق بهذه التقاليد الأخيرة من تغير ، نتيجة لاحتكاك فرسان الغرب بفرسان العرب ·
لقد تعلم أولئك من هؤلاء المحافظة على أرواح الأسرى ، وحسن معاملتهم ، واحترام المرأة ، كما تعلموا أصول الحرب الشريفة ، والرحمة والكرم والنخوة ، وغير ذلك من الشمائل الانسانية السامية ·

وحدث فى الحروب التى نشبت فى الأندلس ،وفى جنوب فرنسا بين العرب من ناحية ، والأسبان والفرنسيين من ناحية أخرى مثلما حدثفى الحروب الصليبية ،وتلقن الفرجنة هنا وهناك أصول الفروسية العربية النبيلة ·

ونشير أخيرا الى أن بعض مؤرخى الغرب الذين ينكرون كل صلة بين تقاليد الفروسية العربية ،وتقاليد الفروسية الأوربية ؛ يدللون على وجهة نظرهم هذه بأن الفرسان العرب كانوا أفرادا يتحلون ببعض صفات الشجاعة ، أما الفروسية في أوربا فكانت نظاما طبقيا له أصول مفصلة،ومنهج مرسوم معلوم !! ··ومن العجيب أن بعض كتابنا العرب يكررون اليوم هذا القول بغير وعى ، وغير هدف ، فهل يحسبون أن العرب متهمون بمحاكاة تقاليد الفروسية الاوربية ، وان من واجبهم دحض ذلك ؟ ألم يفطنوا الى انهم يجردون العرب بهذا القول المغرض ، من فضل تلقين الأوربيين أصول الفروسية التى لعبت أخطر دور فى التطور الحضارى الحديث ؟ ·

قال المؤرخ « هويزنجـا » فى صـفحة ٧٠ من كتابه المذكور مستشهدا برأى المؤرخ السويسرى « شاستيليان» « عرفت القرون الوسطى لونا جديدا من الشرف والمجد يشمل فئة من الناس بعينها ، أو طبقة متميزة ، ولكن المظنون أن تطلع الفارس الى المجد نشأ أول ما نشـــأ فى ايطاليا ، وظهـــرت بوادره فى أفراد متفرقين ·· » والواقع ان تقاليد الفروسية العربية انتشرت فى أوربا خلال العصر الوسيط ، ولم تخضع لنظام الاقطاع الذى كان سـائدا هناك وقتذاك ، وتتحـول من تقليد يتبعـه الافراد الى تقليدطبقى الا بعد أن احتكرها الامراء والأشراف واذا كان هذا التحول أفقدها بعض ميزاتها ، فانه لم ينل كثيرا من تأثيرها الفعال فى تطور الحضـــارة الأوربية ، والسمو بها الى المستوى الذى سمت اليه ·

وهناك قراء لا يطمئنون الى رأى الا اذا وقفوا على مرجعه الأجنبى ، ولا يهم بعد ذلك أن يقام لهم ألف دليل دافع على صحته فالى هؤلاء القراء المراجع التالية :

« تقاليد الفروسية العربية سابقة على نظيراتها فى أوربا » ـ الجريدة الاسيوية ـ (الجزء الثامن من المجلد الرابع عام ١٨٤٩) ·

« تدل الدلائل على أن نظام الفروسية أقدم عند العرب منه عند المسيحيين » (هامير ـ بورجستال) ·

« تقاليد الفروسية نشأت فى الأصل بين مختلف الأمم العربية والأمم السبع » (كتاب « دراسات وخطب » ص ٣٩٦ لشاتوبريون) ٠

« كم من دروس فى تقاليد الشرف والتسامى والنبل تلقنها الصليبيون الهمج عن فرسان الاسلام » (كتاب الشعراء التروبادور ص ٧٥) ٠

« أقدم ريتشارد قلب الأسد ، ملك الانجليز ، على قتل الأسرى المسلمين أمام صلاح الدين ، فلم يعامله البطل العربى بالمثل ، وعاد بالأسرى المسيحيين الى دمشق دون أن يمسهم بسوء ٠ فأى الرجلين أكثر تحليا بتقاليد الفروسية ؟ » (من كتاب « تاريخ أورشليم للمؤرخين « بيسان » و « ياليه » ٠

الفنون العربية

يحسب كثيرون من أهل الفكر في الشرق أن العرب الذين برزوا في بعض الميادين العلمية ؛ قصروا كل التقصير في ميدان الابداع الفني ، وقد قال ابن خلدون نفسه في ذلك : « ليس للعرب فن الا فن الشعر » .

ولكن هذا القول لا يمكن قبوله على عواهنه ، واذا نحن سلمنا جدلا بأن العرب لم يبرزوا في ميدان الفن ـ باستثناء الشعر ـ فانهم قد أمدوا الأوربيين بمعارف فنية كانت السبب في نبوغهم الباهر في هذا المضمار .

لا يخفى أن تاريخ الفنون العربية عاطل من فن المسرح وقد خاضت الأقلام المختلفة الأجناس في أسباب ذلك وكادت تجمع على أن طبيعة الجزيرة العربية الصحراوية التي فرضت على سكانها التنقل من مكان الى مكان بحثا عن عيون الماء ، وعن المراعي الجديدة .. وحالت دون

قيام المدن الكبيرة ، هى التى لم تتح الظروف الملائمة لنشأة فن مسرحى فى تلك البلاد ٠

ولكننا لا نرى لهذا الرأى وجاهة ، فما دامت هذه الطبيعة الصحراوية للجزيرة لم تحل دون قيام سوق عكاظ ، ودون ازدهار محافل الادب ، فقد كانت قمينة كذلك ألا تحول دون قيام المسرح ٠

والذى نراه أن الاغريق ؛ وهم أول من برزوا فى ميدان الفن المسرحى لم يقصدوا باقامة المسارح فى بلادهم الا أن يجسدوا آلهتهم على خشبتها ، وبعبارة أوضح ؛ لم يقصدوا الا أن يحيلوا أوهامهم الاسطورية الى حقائق مجسدة ٠ وهذا لا يعنى أن المسرحيات الاغريقية ظلت مرتبطة بهذا السبب الأساسى فى ظهورها فقد تطورت بعد ذلك وانفصمت صلتها به اما الأدب العربى وقتذاك فكان طبيعيا يعكس الواقع ويجسده دون أن يحتاج الى مسرح يجسد تجسيده ٠ ثم ان العرب كانوا يتشبثون بتقاليدهم وبتراثهم الأدبى ، ويعتزون بهما كل الاعتزاز ٠ فكانت المعلقات والقصائد هى التى تستأثر بأفئدتهم وعقولهم ٠ ومن الطبيعى أن يعجز المسرح بعد ذلك عن منافسة سوق عكاظ ، وأن يقوم الى جانبه ٠

ومن المعلوم كذلك أن فن التصوير والنحت لم يرج بين المسلمين الذين كرهوا التماثيل والصور لعلاقتها بتهاويل الوثنية ونصبها وتماثيلها ٠ ولكن وطأة هذه

الكراهية خفت كثيرا لدى العـــرب فى الأندلس · فهم لم يجدوا حرجا بعد أن وصلوا الى مرحلة حضارية متقدمة ، فى أن يزاولوا فنى النحت والتصوير ·

واذا اكتفينا بالاشـارة الى الأشـكال الزخرفية التى حليت بها الجوامع والأضرحة والقصور العربية ، والتى لا ينكر أحد روعة ما عكسته من جمال شكلى ؛ ومدى ما أحدثته مبتكراتها الطريفة من أثر فى الذوق الاوربى ·· اذا اكتفينا بذلك لأن أمرها معلوم ، فان الذى يستحق التحدث عنه هو الصـور الملونة التى تزين سقف (قاعة الملوك) فى قصر الحمراء فهذه الصور تمثل فرسان العرب وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم العربية ، وسـدد بعضهم الآخر رماحه الى صدور أعدائه ، وهى تمثل كذلك حسان العرب ، وحيوانات مختلفة ، وأشجارا ونباتـات منوعة · وقد حاول بعض الاوربيين أن ينكروا على العرب قيام فنانيهم بابتداع هذه الآيات الفنية ، ولكنهم لم يقدموا دليلا واحدا على صحة ما ذهبوا اليه · وقد تصدى « دى جايونجو » لأولئك المنكرين ، وفند زعمهم ، مؤكدا ان يدا عربية هى التى رسمت تلك الصور ، ومن الأدلة التى قدمها فى هذا الصدد ان الوان تلك الصور وأسـاليب رسمها عربية صميمة ، وان العربى وحده هو الذى يرسم الفرسان العرب وهم يصرعون أعداءهم المسيحيين (كتاب الشعراء التروبادور ص ٨١ ، ٨٢) ·

ومن ثم تعلم رسامو أوربا أن يزينوا أسقف الكنائس والقصور بالصور الملونة . ولعلهم اتخذوا من تلك الصور العربية نماذج لهم ، أو اتخذوا منها نقطة انطلاق للتجديد الفنى الذى حققوه بعد ذلك .

وهناك تحفة فنية فى متحف اللوفر تدل على مبلغ ما وصل اليه العرب من مستوى رفيع فى فن الحضر . هذه التحفة التى عثر عليها الأسبان فى قرطبة، والتى يدل تاريخها على انها صنعت سنة ٦٦٨ م ، عبارة عن علبة خشبية اسطوانية حفرت على جدرانها صور نساء يعزف بعضهن على العود ، وتغنى الأخريات .. وصور غزلان ونمور وفهود (المرجع نفسه ص ٢٩) .

بيد أن أهم ما يستحق التنويه فى هذا الصدد هو الأثر الكبير الذى ، أحدثته فنون الموسيقى والغناء والرقص فى فنون أوربا المماثلة لها !! .

يحسب أكثر الناس أن هذه الفنون الثلاثة متخلفة عند العرب أو أنها عندهم من لون مختلف كل الاختلاف عن لون نظيراتها فى أوربا والا صلة بين هذه وتلك ، ومن ثم لا يكون للأولى أى تأثير فى الثانية ؛ — ولكن الذى يدرس تاريخ الموسيقى الأوربية يدرك مدى خطأ هذا القول .

ونحن نكتفى هنا ، للتدليل على صحة ما نذهب اليه ، بنقل بند من المرجع السابق الذكر ، وأورده فى ص ٢٨ .

« لم يكف العرب عن تجويد آلاتهم الموسيقية التى نقلوا أصلها البدائى عن بلاد فارس وغيرها ، ثم ابتدعوا الربابة من آلة القوس ذى الوتر الواحد .. ومن الربابة العربية عرفت أوربا الكمنجة ، وقد أدخلوا كذلك تحسينات جوهرية على اللوت والعود والقانون ، وتطور الموسيقى يتوقف كذلك فى عصرنا الحاضر على ما يمكن ادخاله على آلاتها من تحسين .. ولولا آلة « الكلافن » التى تولدت من «قانون التخت» ولولا الكمنجة التى تولدت من الربابة لظلت عبقرية « باخ » . « وموزار » خرساء ، ولظلت أذننا صماء لا تسمع النغمات الساحرة التى تشجيها وتسكرها فى هذه الأيام » .

بهذه الصراحة اعترف هذا الأوربى الصادق بأن الموسيقى الأوربية مدينة للعرب بالمستوى الرفيع الذى وصلت اليه فى عصرنا الحاضر . واذا كانت هذه الواقعة تحتاج الى مزيد من الاستشهاد ــ وهى لا تحتاج اليه ــ فليرجع القارىء الى كتاب : « التاريخ العام للموسيقى » تأليف ل . فيتيس . ونحن نكتفى بأن ننقل العبارة التالية من صفحة ٧ من جزئه الخامس فهى تتضمن اعترافا صريحا بما نقرره « الموسيقى الأوربية بنيت فى أواخر القرون الوسطى من أصل عربى » .

وكان العرب أول من طوروا فن النظم ، وقرضوا الشعر الغنائى الملائم للنغم الموسيقى ، وفى الحفلات

الغنائية التي اشتهرت بها قصور بغداد ، ثم قصـور الأندلس بعد ذلك ، ارتقى فن الغناء على نغمات الموسيقى وكان لفن العروض الدقيق ، المتنوع التفاعيل ، المتفرد بين الأوزان الشعرية فى العـالم كله ، فضل كبير فى ذلك • وقد واصل شعراء الاندلس تطوير الشعر ليجعلوه أكثر ملاءمة للغناء ، فنظموا الموشحات ذات القوافي المتبدلة فازداد فن الغناء وفن الموسيقى العربيين ارتقاء ، على حين لم تكن أوربا تعرف الا الغناء البدائى ، ونغمات القيثار والمزمار غير الموقعة •

وفطن الموسيقيون العرب ، بأوزان الشعر العربى الدقيقة المضبوطة ، الى التوقيت الموسيقى ، الذى أصـبح أساس النهضة الموسيقية العربية،ولعل الرقص على نغمات الموسيقى المنوعة النغمات ـ وهو ابتداع عربى كذلك(١) ساعد على اتفاق التوقيت الموسيقى اذ كانت خطـوات الراقصين تجرى بميقات خاضعة لدقات أكف النظارة •

واذا طالبنا قارىء بالدليل على أن أوربا كانت على صلة بتلك الفنون العربية تمكنها من تلقينها ، أو الافادة منهـا ؛ فاننا نحيله الى كتاب المؤرخ الفيلسـوف رينان فى كتابه « ابن رشد وفلسفته » صفحة ١٥٩ حيث قال :

---

(١) أخذت الموسيقى المستحدثة تسير قدما فى مدارج الرقى منذ أخذت الأندلسـيات يرقصن فى قادس لأول مرة على أنغام الصاجات ومختلف الآلات الموسيقية ذلك لأنها عرفت الأوزان عن تلك الطريق (دى ساس فى كتاب بحث أولى فى الأوزان والتفاعيل العربية ص ٢) •

« ان استيراد أوربا للأعمال الأدبية العربية يومذاك أمـر معروف وكان الكتاب الذى يصـــدر فى مراكش أو فى القاهرة يشيع ذكره بين مختلف البلاد الاوربية فىسرعة أقل من السرعة التى يستغرقها انتقال الكتاب الهام من عاصمة المانيا الى الشاطىء الآخر لنهر الرين » وقال جون روا فى كتابه « منابت الشعر الغنائى » : «كانت الاغانى العربية الأندلسية تنتشر فى سرعة تفوق سرعة انتشار الكتب . وقد ارتقى فن الرقص عندنا (المقصود فرنسا فى أوائل العصر الحديث) ولكن كيف ؟ ارتقى بتوجيه الاندلس ، مهد فن الرقص ، ومصدر الشعر الغنائى فى القرنين الأخيرين وقد أحكم بريفو حلقة هذا البحث يقوله فى كتابه السابق ذكره ص ٦٤ : « لقد ازدهر الشـــعر الغنائى بين ربوع جنوب فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وأوائل القرن الثانى عشر ، أى عقب اســـترداد طليطلة من العرب عام ١٠٨٦ ، وسرقسطه عام ١١١٨ ، فقد عنى البلاط الاسبانى بهذا الشـــعر وبتطويره . ولم يهتم به الفرنسيون فى هذا الوقت بالذات من قبيـــل المصادفة » .

ومن المعلوم ان الشعراء التروبادور ، وسيأتىذكرهم فيما بعد ، هم الذين روجوا هذا الشعر فى أوربا .

وننتقل بعد ذلك الى ميدان آخر من ميادينالفنون العربية الذى اغترفت منه أوربا اغترافا .. وهو ميدان فنون المعمار

– والزخرفة وتنسيق الحـــدائق ٠٠ وقد أشرنا الى ذلك لماما فى مواضع سابقه من هـذا الكتاب ، ونحن ننوى هنا الا نطيل كذلك فى شرح مدى افادة أوربا من العرب فى دائرة هذه الفنون فالأمر معروف بل مشهور ٠ وفى قصر الحمراء الذى لا يزال قائما خير شاهد مادى عليه ٠٠ بل ان الآثار الباقية من قصور بغداد والقاهـــرة تنطق بصحته ٠ وتدل على مبلغ ما وصل اليه فن الزخرفة عند العرب من اتقان وسمو ، ووصف لنا بعض المؤرخين القدامى حدائق قصور القاهرة وبغداد وطليطلة فقالوا ان أرض ممراتها مفروشة بالجص الملون ، وحفافيها مصنوعة من الذهب ، وجذوع أشجارها مكسوة بأوراق فضية ٠ وكانت الوسائد الجلدية الملونة المنفوخة تطفو على سطح ماء نوافيرها ، وتدور مع الماء الدائر ، وفوقها العازفـات والقيان وهن يرددن عزفهن وغناءهن ٠

وفى وصف البحترى للبركة فى قصيدتهالهائية ، شاهد جديد على مبلغ اتقان العرب لفن انشاء الحدائق ٠

واذا كان بعض الناس يحسبون أنالعرب لم يمارسوا نحت التماثيل فان الشعر الأندلسى ، الذى وصف تماثيل الأسود فى الحدائق والماء ينصب من أفواهها ؛ يدحض حسبانهم وربما طالبنا قارىء بالدليل على أن أوربا تلقنت هذه الفنون عن العرب ٠٠ وكثيرا ما يعوز المرء الدليل ،

فتخل محله الشواهد القاطعة التى تغنى عنه ·· لقد قلنا ان ملوك أوربا سكنوا القصور بعد القلاع خلال اتصالهم الأول بالعرب ، وأنشئوا الحدائق فى هذه الحقبة بالذات أيضا · فهل وقع ذلك مصادفة ؟ ·· أليس فيما قدمناه من وقائع وأدلة ما يجزم بأن الأوربيين تعلموا من العرب مختلف الفنون والعلوم ؟ فكيف نفترض أنهم استثنوا فنون المعمار والزخرفة ، وتنسيق الحدائق فلم يتلقنوها عنهم ؟ ان استعراض الاتجاهات الحضارية الأوربية فى مجموعها ، عقب اتصال الاوربيين بالعرب ، ومقارنتها بالاتجاهات الحضارية العربية يقطع بأن الأولى وليدة الثانية ·

ثم ان القصص والمسرحيات الأوربية ، التى كتبت فى أوائل العصر الحديث تتحدث عن سحر الشرق ··· وعن الرياح التى تملأ شراع السفن لتدفعها من الشرق الى الغرب ، محملة بأفخر المنتجات الشرقية · وعن أثر تلك المنتجات فى تمييز الطبقة الراقية عن طبقة العامة ·· ولعل بقايا ذلك الاعجاب والتأثر من سحر الشرق ما زال مغروسا فى نفوس بعض الأوربيين ·

أما ارتقاء الصناعات الأوربية بعد محاكاتها بصناعات الشرق العربى فأمره معلوم · ونحن نسوق على سبيل المثال واقعة أحسب أن القراء يعرفونها جميعا ، لاتساع شهرتها ، وهى الساعة التى أهداها هارون الرشيد

لشرلمان ملك فرنسا فى العهد الذى لم تعرف فيه أوربا الزمن الا بزحف الظلال ـ أو بأنابيب الرمال ·· فقــد خاف القوم هنــاك من تلك الســـاعة ، متوهمين ان الشــيطان يتقمصــها ويدير تروســها ، ثم لــم يلبثوا ان امتحنوها ووقفوا على سر حركتها ، واستطاعوا بعد جهد ان يصنعوا مثلها ، ومن ثم ازدهرت فى أوربا صناعــة الساعات ·

الأدب العربي والحضارة

اذا كان الأدب يتأثر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى كل أمة ، ويتطور خاضعا لها فانه يكر ثانية فيؤثر فى تلك الأمة ، ويهز أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، ويلعب أخطر دور فى تطويرها وأى عجب فى ذلك وهو يخوض معمعة النضال فى سبيل التقدم والرقى ، فيعبر بعضه عن الآراء الرجعية المنهزمة ويعبر بعضه الآخر عن الآراء الجديدة البناءة ، وتكتب الغلبة لهذا الجانب الأخير منه فى النهاية ، بناء على سنة التطور وانتصار الجديد على القديم ٠

واذا طبقنا ما تقدم على ما نحن بصدده قلنا : ان النهضة الأدبية التى أثرت فى أوربا أبان القرن الثانى عشر لعبت دوراً رئيسياً فى اقامة صرح الحضارة الأوربية ؛ ونحن نقرر ان النهضة الأدبية المذكورة مدينة فى كل

مقوماتها لأدب العرب ، فاذا أقمنا الدليل على ذلك أقمناه على أن العرب هم الذين لعبوا الدور الرئيسى فى تطوير الحضارة الاوربية الحديثة .. فى هذا الميدان الأساسى أيضاً .

ويحسن بنا أن نسوق نبذة قصيرة خاطفة عن تطور الأدب منذ نشأته ، حتى يسهل وقوف القارئ على الفروق الرئيسية بين طابع الأدب الوثنى الذى اتسم به أدب الاغريق ؛ والادب الأوربى المحاكى له من ناحية ؛ وبين طابع الادب العربى الواقعى للانسان .

قص الكهنة الوثنيون القصص الأسطورية الأولى التى كانوا يصوغونها تفسيرا لظواهر الوجود المحيط بهم وأحداثه المتقلبة ؛ التى كانت توفر لهم الخير حيناوتصيبهم بالشر حينا آخر ، ولكنهم لم يدركوا الوجود الا على النحو الذى صوره لهم ذهنهم القاصر ، ومعارفهم الناقصة ؛ وأوهامهم التى يشحذهاالخوف من المجهول ، ويعرج بها عن دنيا الخرافات والأضاليل ؛ كانوا يظنون أن وراء تلك الظواهر ، والأحداث المتعاقبة عليهم ، قوى خفية تخلقها وتوجهها وفق هواها فرمزوا الى تلك القوى بمختلف الرموز ، وسجلوا معتقداتهم — أو أوهامهم فى قصصهم الرمزية الأسطورية ، التى يدل التاريخ على أنها نواة القصة التى تطورت بعد ذلك وسما اليوم دوحها وتفرع وتشعب .

ولا يفوتنا هنا ان نشير اشارة عابرة الى أن القصة كانت منذ نشأتها الاولى تستهدف أهدافا اجتماعية ٠ فقد حاول أولئك الكهنة البدائيون فى قصصهم الاسطورية المذكورة أن يوطدوا المثل الاخلاقية القومية القويمة التى تدعم نظام المجتمع ، وتوطد أركان أمنه واستقراره ،وأن يجعلوها وسيلة الفوز برضا القوى الخفية والنجـــاة من شرها والتنعم بآلائها أى يجعلوها وسيلة ازدهار الحيـــاة وارتفاع مستواها ٠

وليست بعض القصص المصرية الوثنية القديمة ، ثم ملاحم الاغريق ومسرحياتهم الا خطوات خطتها القصة فى مراحل تطورها التاريخى وقد لاحظ هيجل تطور الفكر عبر الزمن ٠ وكان أول من فطن الى ارتباط الأعمال الأدبية التاريخية بعصرها ، ومما قاله فى صدد تطور القصة انها انتقلت فى عهد الاغريق من مرحلة الرمز الى مرحـــلة التجسيد ٠

ولكن فات هيجل ان قدماء المصريين هم الذين خطوا الخطوة الأولى فى نقل القصة الى مرحلة التجسيد ،وما أدب الاغريق التجسيدى الا امتدادا لما بدأه المصريون ٠

لم يعد الاغريق يرون القوى المتصرفة فى شـــئون الكون قوى خفية غامضة ؛ كما رآها من سبقوهم ؛ ولم يرمزوا لها بالنار أو الشمس أو العجل أو غير ذلك من الرموز ؛ ولكنهم جعلوا لكل عنصر من عناصر الطبيعة ، وكل عاطفة من العواطف البشرية ، وكل عامل من العوامل

المؤثرة في المجتمع ، الهـا يتصرف في حـدود ملكونه وفق مشيئته وجسدوه في صورة انسان لا يكاد يختلف عن سائر البشر شكلا ومعنى . وامتلأت أعمالهم الادبية بتصوير ما نعم به الناس من آلاء الخيرين من أولئـك الأرباب ، وما أصابهم من عنت العتاة منهم ، وما بذلوا من جهد للخلاص من حبائل المقدور ؛ واستدرار عطف الأرباب وغفرانهم .

ومن معنى هـذه المؤلفـات الاغريقية انبثـق الأدب الأوربى خلال الشطر الأكبر من العصر الوسيط ؛ ولكن لونا جديدا من الادب لاحت بشائره كذلك في أوربا مع حلول القـرن الثـاني عشر ، واختلف كل الاختـلاف في شكله ومضمونه عن تلك المؤلفات الاغريقية ؛ ولم يستمد حياته وازدهاره من أي مصدر من مصادر الأدب الاوربى .. فكيف نشأ هذا الادب الجديد ؟ .. أنشأ شيطانيا دون جذور تمده بأسباب ازدهاره ؟ .. أهناك شيء ينشـأ تلقائيا دون أن تتهيأ ظروف نشأته وأسبابها ؟ ... لابد لكل نهضة أدبية جديدة السمات من أساس تقوم عليه ، شأنها في ذلك شأن سائر الظواهر الاجتماعية والطبيعية .. فهي اما أن تقوم كلية على أساس ماضيها المنظور ، واما أن تنتعش بنسمات ثقافية جديدة تهب عليها من الخارج ، وتلائم اتجاهاتها الفكرية والعاطفية .

ونحن نزعم هنا أن الأدب الجديد الذى ازدهـر في أوربا قبيل عهد احياء العلوم هو وليد التزاوج بين

الوعي الثقافي الاوربي ؛ الذى أخذ ينمو حينذاك ؛والثقافة العربية التي زحفت الى بعض الدول الأوربية من أسبانيا وصقلية ونبنى زعمنا هذا على أنه أى ذلك الأدب الأوربى الجديد – يشبه الأدب العربى شكلا ومضمونا ، ولا يشبه غيره من سائر الآداب التى عرفتها أوربا قبل ذلك ٠

وقد أشار المؤرخ الأدبى « بيير ديه » الى هـــذا الاتصال ونتائجه فى كتابه « القصة فى سبعة قرون » ؛ وذكر فى صحيفة ٤٢ من الكتاب المذكور ما يلى :

« ونحن لا نستطيع أن نحدد طبيعة اتصال الصليبيين بالعرب واحتكاكهم بالحضارة العربية ، ولكن الذى لم يعد مجهولا هو ما أسفر عنه ذلك الاتصال والاحتكاك من نتائج اقتصادية وأيدولوجية ، وما تبع ذلك من تطور طرأ عـلى ذوق الأوربيين الحضارى ، ومما تسرب الى الاوربيين عن هذا الطريق ؛ وعن طريق اسبانيا ؛ ميلهم الى تعلم أسباب الرفاهية المعيشية ٠ ويكفى أن نضرب بالملك بودوان الاول مثلا يدل على مبلغ محاكاة الصليبيين للعادات العربية ٠ فقد أخذ الملك يتصرف تصرف السلاطين العـرب ، ويحيط نفسه بمثل مظاهرهم فى بساطة ، ودون أى حرج ، وقد ورد فى هامش الصفحة المذكورة « ونشـــير هنا بهـذه المناسبة ، الى اتجاه معاد للعرب ، يحاول فى غـير وعى أن يتحاشى ، لدى شرح تاريخ الأدب الفرنسى فى العصر الوسـيط ذكر ما أفاده ذلك الأدب من عناصر الحضـــارة العربية والأندلسية ٠٠٠ »

وذكر المؤرخ سالف الذكر ثلاث قصص ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر هي : « قصة طيبة » و « أنياس » و « قصة طروادة الحديثة » ... فقال عنها : « انها لون جديد في الأدب الفرنسي يختلف عما سبقه كل الاختلاف » ؛ ثم ذكر في صحيفة ١٧ من كتابه المذكور « ومؤلفو تلك القصص عاشوا في عصر انتشر فيه الفكر الاغريقي القديم .. ولكن الفكر العربي ذاع خلاله أيضا ، وعم أرجاء العالم الغربي ... » .

ومن المعروف أن نهضة أدبية فكرية عربية ازدهرت في الاندلس على أثر فتح العرب لتلك البلاد ، وبرغم أن هذه النهضة تأثرت الى حد ما بالثقافة الرومانية الاسبانية المحلية ، الا أنها احتفظت بأغلب مقوماتها العربية الأصيلة .. هذه النهضة استطاعت أن تجلي الثقافة الاسبانية المحلية عن الميدان وتحل محلها ، وكم من الادباء الأسبان الذين خالطوا العرب نزحوا الى المناطق التي يحتلها مواطنوهم في الشمال ، ونقلوا معهم عن العرب ألوان الادب الجديد ؛ وروجوه هناك .. وكم من أدباء عرب وقعوا أسرى في قبضة الأمراء الأسبان المستعصمين بالمناطق الشمالية ؛ فقاموا بمثل المهمة التي قام بها الأدباء الأسبان .. وقد طال اهمال الباحثين لمدى ما أحدثه أولئك الادباء العرب من تأثير في الاتجاه الادبي الاسباني بعد اتصالها بأدباء بلاط الأمراء ، الذين أسروهم ، بيد أن بعض مؤرخي الأدب الفرنسيين والاسبان بدءوا يسدون

هذا النقص أخيرا ، ويستقصون هذا التأثير وغيره مما أحدثه العرب في الفكر الاسباني ، ومن ثم في الفكر الأوربي ومن بين هؤلاء الباحثين الذين ألقوا بعض الضوء على هذا الموضوع « جان فرابييه » و « بييرديه »الفرنسيان و « مينديز بيدال » الاسباني ·· ونحن لن ننساق وراء بعض كتابنا الذين يعتمدون على قيام تشابه بين قصص غربية معدودة ، وأخرى عربية ، للجزم بتولد النهضة الادبية الغربية في أواخر العصر الوسيط ؛ من الثقافة العربية ، فان قيام التشابه المذكور قد يعد قرينة على ذلك ، ولكنه ليس دليلا حاسما بحال ·· اذا اقتبس أحد كتابنا قصة من الأدب الياباني مثلا ، وحذا آخر حذوه ونسج ثالث على منوالهما ، فهل يصح أن يعتمد كاتب على ذلك فيزعم أن نهضتنا الادبية تولدت من الادب الياباني ؟ ···

ان مثل هذا التدليل لا يقنع أحدا ؛ أما التدليل المقنع فيقوم على اثبات انطباع الأدب الأوربي في عمومه بطابع الادب العربي بعد اتصاله به ، واستعارة خصائصه ومقوماته فيه ·· وسنشير في الفصل التالي الى الفروق بين خصائص كل من الأدب الاغريقي والأدب العربي ، ثم الأدب الأوربي بعد تأثره بهذا الأدب الأخير ·

قلنا فيما تقدم : ان مثل العرب الفكرية والاخلاقية ومعانيهم الأدبية ، كانت تنتقل أثناء اقامتهم بشبه جزيرة أسبانيا الى شمالها حيث اعتصم بعض الاسبان بجبالها ؛

ومن ثم كانت تتغلغل الى جنوب فرنسا ، وشمال ايطاليا فلما جلا العرب عن الاندلس ، قامت دولة أسبانية جديدة كبرى ذات ثروة وهيبة ؛ وقوة عسكرية باطشة .. دولة بهرت الدول الأوربية التي أخذت تقتبس تقاليدها وعاداتها، وتتأثر باتجاهاتها الفكرية ، بل تحاكيها في كل خطوة تخطوها .. هذه الدولة الاسبانية الجديدة هي في الواقع وليدة الحضارة العربية ؛ أو وليدة تزاوج الحضارتين العربية والرومانية .

وكل مطلع على تاريخ أوربا يدرك ما سبق لنا تقريره ، وهو أن هذه الدولة الاسبانية أصبحت وهي في ابانها أكبر دول أوربا ، ومحط أنظارها ، والمصدر الذي استقت منه أسس حضارتها الحديثة .

وعلينا أن ندلل الآن على اتصال الادب العربي بالأدب الأوربي في الحقبة التي انتعش فيها هذا الادب الأخير ؛ أي في الحقبة الممتدة من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي الى أوائل القرن الرابع عشر ، ثم نتطرق الى ما أحدثه الأدب الأول في الأخير من اثر .

يلاحظ الذين درسوا الأدب الأوربي وتطوره قبل العصر الحديث ؛ ان الشعراء التروبادور هم الذين أحدثوا أكبر أثر فيه ، بل لقد غيروا اتجاهه ، وسددوا خطاه ، فتبدلت حاله كل التبدل حتى عرف السبيل القويم .

والتروبادور هم الشعراء المنشدون الجوالون الذين ظهروا أول ما ظهروا فى أسبانيا خلال القرن العاشر الميلادى ، وكانت أناشيدهم ؛ على ما يبدو ، لونا من الزجل العربى (١) الذى تطور ودخلت عليه كلمات أسبانية ، ثم أصبح مزيجا من اللغتين العربية والاسبانية ، ولكنه لم يفقد خصائص الشعر الأندلسى وميزاته الشعرية ، وقد وردت اشارة عابرة عن ذلك فى الصفحة السابعة من كتاب « الشعراء الفرنسيون » للكاتب الفرنسى « اميل هنريو » قال المؤلف : « ازدهرت منظومات الشعراء التروبادور فى جنوب فرنسا منذ أواخر القرن الحادى عشر الى أوائل القرن الرابع عشر ، وعاصر ذلك ازدهار شعر زملائهم فى جنوب أسبانيا ، وشمال ايطاليا وكان هؤلاء الشعراء المختلفو الأجناس ينظمون شعرهم بلغة واحدة هى خليط من اللغات الايطالية والفرنسية والاسبانية ؛ وكانت هذه اللغة الاخيرة هى الغالبة ... ويرى البعض أن للعرب الفضل فى ازدهار هذا اللون الجديد من الشعر ، وقد حدث ذلك عن طريق غزو العرب لأسبانيا من ناحية ، واتصالهم بالأوربيين خلال الحروب الصليبية من ناحية أخرى » ووصف المؤلف كذلك فى مواضع مختلفة من كتابه المذكور أناشيد الشعراء التروبادور بأنها رقيقة العبارات والمعانى ، انسانية الاتجاهات فياضة بالحيوية ،

---

(١) أول من نظم الزجل العربى هو «مقدم بن الجبرى» الأندلسى وقد عاش فى الأندلس خلال القرن العاشر .

وقرر أن الاتجاهات الجديدة لكثير من الأعمال الأوربية تولدت منها ٠

وظهر الشعراء التروبادور في ألمانيا ، ورددوا الشعر الغنائي نفسه الذى ردده زملاؤهم في اسبانيا ، ثم في فرنسا وايطاليا ٠

وأحدث ذلك أثره البليغ في الأدب الألماني الناشيء ولكن المتعصبين من المؤرخين الالمان أنكروا قيام أية صلة بين شعرائهم المنشدين (التروبادور) وبين زملائهم الاسبان والفرنسيين ، وادعوا أن شعرهم الغنائي نبت من جذور الأغاني الشعبية الألمانية ٠ وقد سخر المؤرخون الفرنسيون بحق من أولئك الالمان ، ولكن النعرة الوطنية ضللت بعضهم أيضا ، فزعموا افكا بأن شعر التروبادور نشا أول ما نشأ في شمال فرنسا ، لا في جنوبها ، محاولين بذلك نفى كل صلة بين شعرائهم وشعراء الاندلس ،ولم ينصف العرب في ذلك غير الايطاليين الذين أقروا من بادىء الامر بأن جذور شعرهم نبتت في الأندلس ٠ ولم يكن دانتي ينقصه وعى ذلك (١) ٠ وقد خصص الكاتب الايطالي « بربيرى » فصلا كاملا في كتابه « منابت الشعر المقفى » لشرح كيفية انتقال ذلك الشعر الغنائي ـ أى شعر التروبادور من الاندلس العربية الى ايطاليا ورواجه بين أرجائها ٠

(١) كتاب الشعراء التروبادور سالف الذكر ٠

والذى يزيد هذا الموضوع جلاء قول « بريفو » فى أول صفحة من كتابه (الشعراء التروبادور) « نشـــأ لون جديد من الادب فى جنوب فرنسا خــلال القرون الوسطى ، على حين كانت ملاحم الاغريق الوثنية فى كذلك الوقت هى التى تستثير مشاعر الناس ، وهذا اللون الجديد أجنبى كذلك عن فرنسا ؛ وقد جلبه اليها الشعراء التروبادور الذين أغنوا به اللغة الفرنسية المحلية وأحدث فى المجتمع الفرنسى الاقطاعى أثرا بليغا بما عبر عنه من عواطف طاهرة سامية ، وذلك بعد أن أنف ذلك المجتمع من بربريته ، متأثرا بالتيار الحضارى المهذب الذى هب عليه من الاندلس العربية .. وبعد أن تهيأ لتذوق هذا الشعر المهذب » .

ونختتم أسانيدنا بقول «بييرديه» فى كتابه (القصة فى سبعة قرون) : « نشر العرب فى الاندلس خلال القرن العاشر الميلادى حضارة جديدة أصيلة ، وابتدعوا شعرا غنائيا انسانيا حمله شعراء التروبادور الى الشمال ، وتدل المراجع التاريخية على أن القصور الاندلسية ؛ بعـــد أن احتلها الاسبان ، كانت تذخر بشعراء العرب الذين وقعوا فى الأسر ، على حين كانت الحرب لا تزال دائرة بين الاسبان والمسلمين .. ومن الســـخف أن يتجنب مؤرخو الادب الفرنسى ذكر هذه الوقائع الثابتة بالأدلة المسجلة » .

واذا كان الأدب الأوربى قد تغير فجأة فى أواخر العصر الوسيط واتخذ طابعا عربيا بحتا ؛ بعد أن كان

على نقيض ذلك ، وثبت أن هذا التغير لم يحدث الا عقب غزو الشعر العربى لبلاده ، فهل يشك أحد بعد ذلك فى أن الشعر العربى المذكور هو الذى طوره ، وغير اتجاهه الى الوجهة التي مكنته من بلوغ المكانة التى بلغها ؟

ونذكر الآن تلك الوقائع التى يعرفها القارىء المصرى عن سطو بعض المؤلفين الأوربيين القدامى ، الذين نهضوا بأدب بلادهم ـ مثل « بوكاشيو » و « دانتى » و « دون جوان » و « شوسر » وغيرهم ـ على القصص والمؤلفـات العربية، وسرقة بعضها وافادة ذلك فى تلوين الأدب الأوربى باللـون الجديد الذى أعانه عـلى التطـور والازدهار .. فان ذكرها بعد كل ما تقدم يدعم وجهة النظر التى تؤيدها ، ويزيد فضل العرب المنكور وضوحا .

خصائص الأدب العربى

ظل شعراء التروبادور يطوفون بأنحاء أوربا خلال القرون الاخيرة من العصر الوسيط وينشدون الناس منظوماتهم التى جلبوا بعضها من الاندلس ونظموا بعضها الآخر على غرار الاول ، واذا بقى شىء من الشك فى أصل هؤلاء الشعراء فان اسمهم نفسه يدل عليهم فكلمة تروبادور ليست فى أصلها «كلمة» ؛ ولكنها «عبارة» مركبة من كلمتين ، أولاهما كلمة « تروب » ومعناها بالأسبانية فرقة ـ والمقصود فرقة غنائية ـ وثانيتهما كلمة « تدور » وهى عربية واضحة المعنى ، فالتروبادور هى فرقة من الشعراء المنشدين تدور فى البلاد لتنشد شعر أعضائها .

وسنحاول الآن أن نتحقق من أمرين ، أولهما أن شعر التروبادور ظل محتفظا حقا بخصائص الشعر الذى نبع

منه ، وثانيهما أنه أيقظ فعلا نهضة أوربا الادبية فى الحقبة المذكورة ٠

أشرنا فيما سبق الى أن شعر العرب كان يتميز عن شعر الاغريق الوثني الاسطوري بأنه واقعي ، يعكس الواقع المحيط به في دقة وصدق ، وبأنه انساني يحلل مشاعر الانسان الرقيقة في عمق ووعي ، وطبيعي لا يعرف الاساطير ولا يلجأ الى التضخيم والتهويل ٠فهل احتفظ شعر التروبادور بهذه الصلات ؟ نعم ، لقد احتفظ بها ٠ وسنستشهد على ذلك ببعض أقوال الأوربيين أنفسهم ٠

تضمن كتاب « القصة في سبعة قرون » ؛ وقد أشرنا اليه سابقا ، فصلا ، قارن فيه مؤلفه أدب الاغريق ، الذى تأثرت به أوربا في العصر الوسيط بالادب الجديد الذى نشأ في أوربا ، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادى : « ليتحدث من يشاء كما يشاء عن هذه الانسانية المستفيضة التى تفجرها مفاتن الطبيعة ؛ وعن الجدة اليانعة فى ذلك الشعر المنقطع النظير ٠٠٠ لا سيما عندما يصف اضطراب قلب المرأة حين تقع فى حبائل الحب ٠٠ ان عظمته لاتتصل من قريب أو بعيد بذلك القلق الذى ينتاب الانسان خوفا من القدر المكتوب ، وانما تقوم على الايمان بالحياة ، والتغنى بسحر الربيع ٠٠ لقد تبدل العالم الاغريقى الوثنى فى هذا الشعر الجديد ، وبدأ صوت المرأة يتردد فى أبياته ، على حين كان هذا الصوت لا يعلو فى الشعر القديم الا لينادى بالويل والثبور ٠٠٠ » ٠

وسنكتفى باقتطاف نتف قليلة من الشعر العربى القديم ، لندلل على أنه كان يتضمن الصفات والمعانى نفسها التى رأى المؤرخ الفرنسى فى النبذة السابقة أن شعر التروبادور والشعر الفرنسى الذى حاكاه حينذاك كانا يتضمنانها . قال الشاعر العربى القديم يصف المشاعر الانسانية التى فجرتها مفاتن الطبيعة :

ولما نزلنا منزلا طله الندى
أنيقا وبستانا من النور حاليا

أجد لنا حسن المكان وطيبه
منى فتمنينا .. فكنت الأمانيا

وقال آخر يصف الربيع وصفا يكاد يحييه وينطقه :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقال آخر يصف المرأة حين يتملكها الحب :

بنفسى وأهلى من اذا عرضوا له
ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

ولم يعتذر عذر البرىء ولم تزل
به سكتة حتى يقال مريب

وهل ريبة في ان تحن نجيبة
الى الفها أو أن يحن نجيب ؟

وقال بشار يصف هذا الصمت الناطق :

واذا قلت لها جودى لنا
خرجت بالصمت عن لا ونعم

والعربى لا يشغل باله بالغيبيات وألاعيب القدر ؛ وانما تستحوذ على لبه مطالب قلبه ، ومطالب الحرب والذود عن الحياض .

قال المتنبى :

وللغيد منى ساعة ثم بيننا
فلاة الى غير اللقاء تجاب

ثم يعود فيقول :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى
وللحب ما لم يبق منى وما بقى

وما كل من يهوى يعف اذا خلا
عفافى ويرضى الحرب والخيل تلتقى

والمرأة العربية ليست أمة تباع في سوق الحب أو سوق الزواج ، ولكنها ذات مكانة تعتز بها وتحافظ عليها وذات تمنع ودلال قال البحترى :

وهو بالدل مستبد (م)
وبالحسن منفرد.

والشعر العربى يسترسل في وصف دلال المرأة وحصانتها استرسالا يلفت النظر ، ويغنى عن كل استشهاد ويتردد صوتها في نواحيه عاليا صريحا جريئا • بيد أن جرأته تتسم بالحفاظ على الشرف والكرامة •

قال أن فراس :

تقول لنا من آنت وهى عليمة
وهل بفتى مثلى على حـاله نكر ؟
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلك •• قالت أيهم فهم كثـر ؟

ولا تأنف المرأة العربية من الاعتراف بحبها ، رغم أنفتها وكبريائها ؛ ذلك لأن حبها شريف عفيف لايدعو الى الاستحياء •

قال عمر بن أبى ربيعة :

وقالت وقد لانت وأفرخ روعهـا
كلاك بحفظ ربك المتجبـــر
فأنت أبا الخطـــاب غير منـــازع
على أمير مـــا مكثت مؤمـــر

والعربى لا يعز المرأة فحسب ولكنه يضعها فى أعلى مكانة ، ويؤثرها على أهله وقومه ، والشعر العربى ملىء بالأدلة على ذلك ، فأنت تجد مثل هذه العبارات تتردد فيه بكثرة « بأبى أنت ؛ وبأمى ، وبأهلى وحياتى •• » ••

ان الشعر العربى واقعى من ناحية تسجيله للواقع فالشاعر العربى يصف حبيبته •• وحصانته وناقته ، والصحراء المترامية الأطراف ، والنجوم المتألقة فى السماء العربية الصافية ، والرياض والغياض المخضلة وسط اليباب ، والذئاب العاوية تحت جنح الظلام الرهيب ••• انه يصف كل ما يحرك مشاعره وصفاً مباشرا صادقا لا يستعين بالرمز أو الاسطورة وهو يحلل عاطفة حبه تحليلا دقيقا واعيا •• قال ابن الطثرية :

وأذهب غضبانا وأرجع راضيا .
وأقسم ما أرضيتنى بين ذلك

وقال آخر :

أحبـا على حب وأنت بخيلة
وقد زعموا ألا يحب بخيل !

وهو ينتقي التشبيه الخلاب فى وصفه •• قال البحترى :

ويوم تأوهت للبين وجدا
وكفت عبرتين تباريان
جرى فى نحرها من مقلتيها
جمان يستهل على جمان

وقال آخر :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وبعد أليست خصائص هذا الشعر هي الخصائص التي اتسم بها الشعر الاوربي يوم أن تحول من شعر وثني الى شعر واقعي انساني ؟ .. أليست هي بعينيها الخصائص التي تحدث عنها « بيبرديه » عند وصفه للأدب الفرنسي الجديد الذي ظهر في أوائل القرن الحادي عشر ؟ ... وهي التي ذكرناها في أول هذا الفصل ؟ ..

بقي الشطر الثاني من هذا البحث ، وهو الخاص بالنظر فيما اذا كان الأدب الأوربي قد تأثر في الحقبة التي نتحدث عنها بشعر التروبادور ، واستقام بهذا التأثر واهتدى به الى الطريق السليم الذي انتهى به آخر الأمر الى النهضة الأوربية المعاصرة .

ان الحكم في هذا الموضوع جدير أن يترك الحجة فيه ، ولذلك ندعه للمؤلف « بيبرديه » الذي قال في ص ٩٥ من كتابه السالف الذكر : « عرفت الطبقة الفرنسية ذات السلطان في مطلع القرن الثاني عشر ذلك اللون الجديد من الحب العف السامي ؛ وخضع الادب فيه كل الخضوع لاتجاهات الشعراء التروبادور » .

وعاد المؤلف في صفحة ٩٧ من كتابه الى هذا الموضوع فقال : « ... ونشأ في أوربا لون جديد من الشعر يفوق شعر الغزل السابق عليه ، ويتحاشى ذكر آلهة الملاحم القديمة ، وأساطير أوفيد ؛ ويستبدل بها الحقائق الواقعية»

ثم حسم الأمر بقوله فى الصفحة ٤١٥ من ذلك الكتاب « يستطيع المنقب فى القصص المنظومة التى انتشرت فى فرنسا خلال تلك الحقبـــــة . وفى منظومات التروبادور القصصية ، أن يرى وجه الشبه القريب بينهما ، فالشخوص القصصية مشتركة هنا وهناك ، وكذلك يتشابه ترتيب القوافى فى هذا الشعر وذاك » .

بهذا القول قطع هذه الحجة بمحاكاة الشعر القصصى وهو اللون الادبى الغالب فى ذلك العصر ؛ لشعر التروبادور النابع من المصادر العربية . ولا نحسب الامر يحتاج بعد ذلك الى تدليل جديد ، لا سيما وصاحب القول الفصل فيه أوربى ؛ فهو بعيد عن شبهة محاباة العرب .

ونتطرق من ذلك الى ملاحظة قد لا تفوت القارىء المحص وهى أن الأدب الاوربى الجانح الى الخيال الشاطح المستعين بالرمز ، والمترفع عن الواقع وحقائقه الموضوعية هو من رواسب الأدب الاغريقى الوهمى ، على حين أن أدب أوربا الواقعى امتدت جذوره الى الأدب العربى القديم .

أثر البيئة فى الحضارة العربية

آن أن نفى للقارىء بوعدنا ونبحث فى الاسباب الأولى التى طبعت الحضارة العربية بذلك الطابع المتميز الذى شرحناه ٠

من المعروف أن العرب كانوا فى الجاهلية متفرقين قبائل وبطونا وأنجادا فى شبه جزيرتهم الصحراوية القليلة الموارد والمراعى ٠ وقد دفعتهم هذه القلة فى المواردوالمراعى الى التكالب عليها ٠ والحرب فى سبيل الفوز بها ، أو الذود عنها ، أو الاخذ بالثأر ، أو نجدة الصديق ؛ وغوث الملهوف ولم تلبث الحرب أن أصبحت ديدن تلك القبائل ثم أدت الى النتائج المحتومة فى مثل تلك الحال ، فأصلت صفات الشجاعة والجلد فى شباب القبائل ورجالها ٠ ولم تكن القبائل المغيرة المنتصرة تكتفى باغتصاب المراعى وموارد الماء والأسلاب ؛ ولكنها كانت تسبى النساء أيضا ٠٠ ومن ثم

نما فى صدور فرسان القبائل شعور بمسئوليتهم عن سلامة حياضهم ونسائهم على السواء · وتوطد بينهم تقليد من أهم تقاليد الفروسية وهو النضال فى سبيل أمن المرأة وشرفها وعزتها ··· ومن ثم أيضا سمت مكانة المرأة التى لم تعد تقنع بحالتها ، ولكنها عملت على زيادة منزلتها توطدا فتعلمت كيف تعز وتذل وتتحمل وتتهذب · ويكون لها رأى مسموع ، وارادة مسلم بها على نحو ما شرحنا فى الفصل الذى خصصناه لها ·

وكانت القبائل فى البلاد غير العربية حينذاك تخشى القحط ؛ وترجف خوفا من ثورات الطبيعة المتقلبة ومن المرض والموت والأحلام وغير ذلك من الظواهر التى لا يستطيعون تفسيرها وتعليلها،وتستعين بالدعوات والسحر لاسترضاء ما تتوهمه من قوى شريرة تريد بها ضرا على حين عرف رجال القبائل العربية أنهم يستطيعون أن يحققوا مطالبهم · ويوفروا حاجاتهم · ويدرءوا الشر عنهم بحد سيوفهم دون استجداء العطف والرفق من أرواح الشر التى تتحكم فى الأرزاق ، وتصرف الاقدار ·

وعندما اهتدى الانسان الى الزراعة وفلح الارض بالفعل ؛ احتاج زرعه الى القدر الكافى من الماء والجو الملائم ، فظل فى حاجة الى تلك القوى المجهولة لتصون زرعه وتنميه ، وتصون حياته ، وصحته وتنمى ذريته ·

وأتاحت له الحياة الزراعية الجديدة منادح من وقت الفراغ للتأمل في الواقع ومحاولة تفسيره • وأشعلت ظواهر الطبيعة الغريبة المجهولة الأسباب خياله الخامد • وبذلك ابتدع الأساطير التي راجت بين المجتمعات الزراعية الأولى ، بعد أن أصبحت ظروفها أكثر ملاءمة للتأمل من ظروف أسلافها القبليين • ودليل ذلك ما حققه الأدب الأسطوري في مصر القديمة من ازدهار مساير لازدهارها الزراعي ••• وقد اقتبس الاغريقي قصصها الاسطورية التي ترامت اليهم عن طريق الفينيقيين وغيرهم من الأقوام الذين عاشوا بين البلدين ، وتنقلوا من أحدهما الى الآخر وتطورت الأساطير المصرية بعد انتقالها الى اليونان واتخذت الطابع الذي لازم الاوضاع لتلك البلاد على نحو ما شرحناه سابقا •

ولكن شأن العرب كان يختلف ، كما أوضحنا عن شأن تلك البلاد وثقافتهم عن ثقافتها لأن ظروفهم الاقتصادية ؛ وأوضاعهم العمرانية كانت تختلف عن ظروفها وأوضاعها فعيون الماء والمراعي القليلة التي أعوزتهم كانت تؤخذ بحد السيف ، والذود عنها كان يعتمد على حد السيف •

واحتاج اقتتالهم المتواصل في سبيلها الى الجياد والنياق • فلا عجب اذا كان أهم ما يشغل بال العربي حد سيفه ، وظهر جواده وناقته ، ولما كان الشعر تعبيرا عن أهم ما يختلج في صدر الشاعر من أحاسيس فلا عجب كذلك اذا امتلأ شعره بوصف شواغله هذه •



كان رجال القبائل العربية يخوضون المعارك لا ليحموا أموالهم وحياتهم فحسب ؛ ولكن ليصونوا نساءهم أيضا – وقد أشرنا الى ذلك – ومن ثم عرفت المرأة العربية فضل رجلها ، وأكبرت شجاعته ، وقدرت حمايته لها وصونه لكرامتها ... فأصبح فى نظرها حامى الحمى ، والبطل المغوار . وأحدث تقديرها له أثرا عميقا فى نفسه وحرك مشاعر المروءة والنجدة والنخوة ؛ وازداد حماسة وشجاعة

وهكذا لم تعد علاقته بامرأته مجرد علاقة جسدية ، ولكنها أصبحت حبا من نوع جديد عجيب .. حبا ساميا يبعث أنبل العواطف الانسانية وأسماها . ومن ثم نشأ الحب العذرى كما نشأت تقاليد الفروسية وخلب ذلك لبه واستحوذ على مشاعره ، فعبر عنه فى شعر الغزل الذى اشتهر به الأدب العربى ، والذى يعد أفضل شعر فى نوعه على الاطلاق . ولم يكن شعر الفخر عند العرب أدنى فنا وأقل شهرة من شعر الغزل ؛ لا سيما بعدما تبينوا أثره الساحر فى اشعال الحماسة ، وتأصيل صفات الفروسية فى حماة الحمى .

ومن الآثار التى ترتبت على ما تقدم أن العربى لم يعد يخشى الأحلام والامراض والموت كما كان يخشاها غيره بل لم يعد يشغل باله بها وبذلك لم يصور له خياله الأوهام التى كانت تتراءى لغيره . ولم تجد الخرافات والاساطير مجالا للاستفحال فى ذهنه . فنظر الى الواقع نظرة

سليمة صادقة ، وصوره فى شعره على حقيقته دون أن تموهه أضاليل الاوهام ·

ولا نكران ان العربى الجاهلى كان يعبد الاوثان ، ويؤمن باللات والعزى وغيرهما من أربابه ؛ ولكن دينه الوثنى لم يشغل باله كثيرا ·

فهو لم يكن يذكر آلهته الا عندما تحيق به الهزيمة ولكنه سرعان ما كان يدرك نصرا الا اذا أهاب بشجاعته ، واعتمد على حد سيفه ·· لقد كان يحارب خصما يعرفه ويعرف وسائل قهره · بعكس أقوام العصر القديم الذين كانوا يغالبون عناصر الطبيعة التى يجهلونها ·· ولذلك تحرر من الخرافة التى كانت تخيم على أذهانهم ·

هذه هى الظروف التى سمت بمكانة المرأة عندالعرب وحركت فيهم مشاعر الفروسية ، وأصلت تقاليدها ، وحررت أذهانهم من الخرافات والاوهام فصانت شعرهم من لوثة الأساطير وحفظته سليما واقعيا صادقا ·· وقد يعترض معترض فيقول ان الامم غير العربية كانت فى ذلك الزمان تخوض الحروب كالعرب فلماذا لم تتأصل فيها صفاتهم ؟ ··· ولماذا تتحرر من لوثة الخرافات ؛ ولم يتحرر أدبها من طابعه الخرافى ، ويتجه الى الواقعية ؟ وليس الرد على هذه الاسئلة مما يغيب عن بال المدقق · فهناك فرق بين الحروب التى تشتبك فيها الشعوب · فلا يتعرض للخطر الا من كان فى خط القتال · وبين الحروب المتلاحقة التى

تنشب بين قبائل العــرب فلا تنعم أية قبيلة بيوم واحــد تأمن فيه على نفسها وتريح أعصابها المتوترة • كان العربى فى قلق دائم على امرأته وعلى نساء القبيلة وحياضها وأموالها وكان فى حاجة الى الاغارة المتوالية على خصومه ليفـــوز بالأسلاب ، ويمد بها قومه ، وكان عليه ن يظل متأهبا لينقذ جارا ؛ أو لينصر مظلوما ومن ثم أصــبح فارسا ، مهمته الضرب بالسيف لتحقيق الأغراض النبيلة • وأيقن أن هذه الأغراض لا تتحقق بالتوســل الى الأوثان ، ولكن بالاعتماد على حد سيفه ، وعلى عزيمته وشجاعته . فاطرح الآوهام بعد وقوفه على هـــذا الواقع ، وأدرك حياته على حياتها حقيقتها ، واستطاع بذلك أن يقيم ثقافته على ذلك الأساس السليم الذى أعان العالم على بناء صرح الحضارة الحديثة •

كلمة ختامية

ننتهى مما تقـــدم الى أن الأمم كان بعضها يتلقن الثقافة عن بعض وهكذا دواليك • فالاغريق تلقوا مقومات حضارتهم عن المصريين والعرب ••• ثم عاد العرب فتلقوا بدورهم فنونا من ثقافة الاغريق • ثم صارت لكل من هاتين الأمتين حضارة ذات طابع خاص بها ، وأن الحضارة ذات الطابع العربى هى التى أثرت فى أوربا الغربية ، وهدتها الى السبيل الذى انتهى بها الى ما انتهت اليه اليوم ••• ثم ان كل حضارة بذاتها لا تبقى فى الأمة التى نشأت بها على حال واحدة ولكنها تتطور على الدوام • وقد تسير قدما أو يطرأ عليها من الظروف الخارجية ما يعود بها القهقرى الى وراء •

وليس من الغرض من هذا الكتاب أن يثير الغرور فى صدر قومنا ويغنيهم عن السـعى لتحقيق أمجاد جـديدة باستشعار مفاخر الأمجاد الماضية ، والاكتفاء بها • وانما

الغرض منه أن نعلم نحن العرب أن أجدادنا أسهموا بأكبر نصيب فى بناء مسرح الحضارة الراهنة ٠

فهى تراثنا قبل أن تكون تراث سائر الأمم التى أسهمت فى تشييدها ٠ ولا غضاضة علينا فى اقتباس مقوماتها النافعة الملائمة لنا ؛ على أن نطورها فلا نلحق بالركب الحضارى فحسب ولكن نسابقه ونفيدها كما نفيد منه ٠

فهـرس

الموضوع	الصفحة
تزاوج الثقافات	٣
الاغريق والحضارة	١٨
بذور الحضارة	٣٢
صفات العرب الحضارية	٥١
المرأة العربية والحضارة	٥١
تقاليد الفروسية العربية	٦٦
الفنون العربية	٧٣
الأدب العربى والحضارة..	٨٣
خصائص الأدب العربى	٩٥
أثر البيئة فى الحضارة العربية	١٠٣
كلمة ختامية	١٠٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٥٧٢/١٩٧٥

الثمن : ١٠ قروش

* هذا الكتاب

اذا كانت الحضارة الأوروبية قد بهرت بعلمها ومعارفها وتقدمها جيلا بعد جيل وفتن بها العلماء والأدباء فنهلوا من نبعها الصافى ومعينها الذى لا ينضب فهل نشأت هذه الحضارة من فراغ ولم تتأثر بحضارات سابقة ؟ كلا فالحضارة العربية والمصرية التى عمرها آلاف السنين لها الفضل فى تلك الحضارات الحديثة وهذا الكتاب بسوق الأدلة التى لا تقبل الشك فى فضل الحضارة العربية على الأوربية وكيف انتقلت اليها من أسبانيا ٠ ومن واجب كل عربى أن يعرف ذاته ... تفتحت فيه الأذهان على قيمة العرب وقوتهم وحضارتهم ...

العـدد القادم :

المستقبل البيولوجى للانســان

تأليف : د٠ محمد مصطفى الغولى